أجاثا كريستي

المَوْت بالمِرْصاد

دار النجمة للنشر والتوزيع

المَوت بالمِرصاد

أجاثا كريستي

المَوت بالمِرصاد

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

وقفت رنزنب الشابة الجميلة تنظر إلى النيل وهي تسمع عن بُعد صوت أخوَيها يحموز وسوبك يتجادلان في شأن بعض الجسور وحاجتها إلى التقوية، وكان صوت سوبك عالياً جريئاً كعادته دائماً، وقد أخذ يؤكّد صحة رأيه وكأنه حقيقة ثابتة، أما يحموز فكان صوته خافتاً ينبئ عن الضجر والشك والقلق والخوف، ولا عجب؛ فهو أكبر إخوته، لهذا كان عليه أن يتولّى إدارة المزرعة بالنيابة عن أبيه كلما سافر لتفقّد أملاكه في الشمال.

وقد تعودَت رنزنب مثل ذلك الجدل من أخوَيها منذ طفولتها، كما اعتادت تناقض طباعهما، لكن صوتهما بعث في نفسها الطمأنينة في ذلك الوقت، فقد شعرَت أنها قد عادت أخيراً إلى بيت الأسرة الذي طالما شعرت فيه بالأمان والحنان.

وبينما هي تنظر إلى النيل الشاحب اللامع عاودها شعور الثورة والألم، فقد تذكرت موت خاي زوجها ذي الوجه الضاحك والكتفَين العريضتين، فهو في مملكة الموتى مع أوزيريس الآن. لقد تركها لوحدتها الموحشة بعد أن عاشت معه ثمانية أعوام، وكانت حين تزوجها أقرب إلى الطفولة، ولكن ها هي ذي قد رجعت إلى بيت أبيها أرملة مع طفلتها تيتي.

وفي تلك اللحظة خُيّل إليها أنها لم تغادر بيت أسرتها قط، فاطمأنّت إلى هذا الخاطر عساها تنسى تلك السنوات الثمانية التي كان يملؤها الهناء ثم انتهت بها إلى الألم والحزن، وقالت تحدث نفسها: لن أفكر في الماضي، لقد انتهى، وها أنا ذا في بيت أبي وكل شيء باقٍ كما كان من قبل، وأنا أيضاً لن ألبث حتى أعود كما كنتُ تماماً، وكذلك قد نسيت تيتي أباها، فها هي ذي تلعب وتضحك.

وفجأة استدارت رنزنب فاتخذت طريقها إلى البيت مارة بحمير تحمل أثقالها إلى شاطئ النهر حتى وصلت إلى صوامع القمح وبعض المرافق، ومن ثَم ولجت البوابة إلى فناء الدار، فلاحظت أن ابنتها تيتي تلعب بأسد خشبي صغير يُفتح فمه ويُغلق بجذب خيط، فتذكرت أنها كانت تلعب به في طفولتها أيضاً. وتدحرجت عند قدميها كرة لأحد الأطفال كان يلعب بها، فتناولتها ورمتها إليه ضاحكة، ثم مضت رنزنب إلى الشرفة الأرضية فدخلت الدار مارّة بردهتها الفسيحة إلى الجزء الخلفي حيث جناح النساء، فاخترقت أذنيها أصوات عالية، فوقفت تنصت مسرورة لسماع الضجة القديمة المألوفة.

أجل، فقد كانت ساتيبي وكيت تتجادلان كالمعتاد، وقد تذكرت نبرات صوت ساتيبي في قوته وصياحه، وساتيبي هي زوجة أخيها يحموز، وهي امرأة طويلة القامة بادية النشاط مرتفعة الصوت ذات جمال ورغبة في التسلط والسيطرة، وعندما سكتت ساتيبي سمعت رنزنب صوت كيت هادئاً عنيداً، وكانت كيت زوجة سوبك الوسيم، وهي امرأة بدينة حظّها من الجمال قليل ولا تهتم إلا بأطفالها ولا تكاد تتحدث إلا عنهم.

صاحت ساتيبي قائلة: هذا شيء فظيع! لو أن ليحموز همّة فأر لما رضي بذلك لحظة. مَن الذي يدير الأمور في غياب أمحوتب؟ يحموز طبعاً، وأنا بصفتي زوجة يحموز يجب أن يكون لي حق الاختيار الأول للحصُر والوسائد، ولكن تلك الأمَة السوداء التي تشبه جاموس النهر...

وهنا سُمع صوت كيت وهي تخاطب أحد أطفالها قائلة: لا، لا يا عزيزي، لا تأكل شعر الدمية، ولكن خُذ هذه فكلْها فهي قطعة حلوى.

فقالت لها ساتيبي: أنت لا تعرفين الأدب يا كيت؛ فأنت لا تُصغين لما أقوله ولا تجيبين بكلمة. سلوكك شائن.

- الوسادة الزرقاء كانت لي دائماً. آه! أنظري إلى عنخ الصغيرة، تحاول أن تمشي!

- أنتِ بليدة الفهم مثل أطفالك، ولكنكِ لن تحققي بغيتك بهذه السهولة، وحقوقي سآخذها.

* * *

سمعت رنزنب وقع قدمين خلفها، فاستدارت مرتاعة، وإذا بها ترى المرأة حنة وراءها، فنظرت إليها وقد تملكها شعور بالكراهية لا تدري سببه، فقالت لها حنة وقد علَت وجهها النحيل ابتسامة خفيفة: لعلك ترَين أن الأحوال هنا لم تتغير كثيراً يا رنزنب؛ فما زلنا جميعاً نصبر على حدّة لسان ساتيبي، ولكن لا أدري كيف نصبر؟! ولا شكّ أن كيت تستطيع أن تجادلها، أما أنا فأعرف مكاني ولا أتخطى حدودي؛ فأنا مدينة لأبيك بالشكر إذ منحني المأوى

والغذاء والكساء، وأنا دائمة العمل هنا أو هناك، ولكن لو كانت أمك العزيزة على قيد الحياة لاختلف الأمر، أجل؛ فهي التي كانت تقدّرني حق قدري. لقد كنّا بمثابة أختَين، وقد وفيتُ بوعدي لها إذ قالت لي وهي تجود بروحها: "اعتني بالأطفال يا حنة"، وقد اعتنيتُ بكم وكنتُ لكم بمثابة أم رقيقة.

ثم انسلّت كثعبان الماء فدخلت غرفة هناك، ثم مضت رنزنب وقد ثار في نفسها بغضها القديم لحنة. ومن عجب أنهم جميعاً كانوا يكرهون هذه المرأة؛ فقد كانت حنة امرأة لا تَسرّ رؤيتها، ولكنها برغم غباوتها البادية كانت تعرف كل ما يجري في البيت، والفضل في ذلك لتسللها من مكان إلى مكان دون صوت، وإنصاتها لكل ما يقال متجسسة على من فيه.

وقفت رنزنب لحظة تستمع إلى جدال زوجتَي أخوَيها، ثم ذهبت إلى غرفة صغير خاصة بجدتها إيزا، فوقفت ساكنة وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة، ومن ثَم كانت تسمع في آن واحد ضجيجَ المطبخ وصوتَ جدتها الحادّ المرتفع وصياح ساتيبي وصوتَ كيت الخافت مؤكّدة ما تقوله في عنادٍ وبلبلةَ أصواتٍ من نساء يتكلمن ويضحكن ويصخبن ويصرخن، فشعرت رنزنب أنها تكاد تختنق في هذه البيئة النسائية الصاخبة، أجل؛ فهذا المنزل مملوء بنساء لا يهدأن قط، بل لا زلن يتكلمن ويصِحْن ويَقُلنَ أشياء لا يفعلنها أبداً، فخرجت رنزنب من الدار مسرعةً فأبصرت سوبك عائداً من الحقول، كما شاهدت على البُعد يحموز قاصداً المقبرة، فاتخذت طريقها نحوه ومضت في درب يوصل إلى صخور الكلس التي شُيّدت المقبرة فوقها.

ولمّا بلغت رنزنب نهاية الدرب المنحدر رأت أخاها يحموز

يتحدث مع حوري وكيل أعمال أبيها. كانت منذ نعومة أظفارها تحب أخاها يحموز، وكذلك كان حوري دائماً لطيفاً معها منذ كانت طفلة صغيرة، وكان حين غادرت المنزل منذ ثمان سنوات شاباً رزيناً كثير الصمت، والآن خُيّل إليها أنه لم يتغير ولم تتغير ابتسامته الرزينة، وإن كان أكبر سناً من ذي قبل.

كان يحموز وحوري يتمتمان معاً قائلَين: ثلاثة وسبعون إردبّاً من الشعير مع إيبي الصغير، إذن تكون الجملة مئتين وثلاثين إردبّاً من القمح ومئة وعشرين إردبّاً من الشعير، ولكن هناك ثمن الخشب، وقد دُفع ثمن المحصول في برها مبادلة بالزيت.

وظلاّ يحسبان في حين جلست رنزنب تستمع صامتة، ثم قام يحموز وناول حوري ورقة بردي، ومكثت رنزنب صامتة، وما لبثت أن أمسكت برقعة الورق حتى سألت حوري: أهذا كتاب من أبي؟

- نعم.

- ماذا يقول فيه؟

فتناول حوري الخطاب وأخذ يقرأ بصوت هادئ: يقول أمحوتب خادم المزرعة وخادم كا: "عسى أن يكون حظك كحظ من يعيش مليون سنة، وعسى بتاح أن يَسرّ قلبك بالعمر الطويل". ثم يخاطب أمه إيزا سائلاً: "كيف حالكِ في معيشتك وطمأنينتك وصحتك يا أمي؟ وكيف حال أهل الدار جميعاً؟ وأنت يا يحموز يا بُني، كيف حالك في معيشتك وطمأنينتك وصحتك؟ يجب أن تجني أكبر محصول من الأرض، وأن تبذل كل جهد في فلاحة الأرض".

وهنا ضحكت رنزنب قائلة: يحموز المسكين يرهق نفسه أشد الإرهاق في العمل.

فاستأنف حوري قراءة الخطاب قائلاً: "اعتنِ بابني إيبي فقد علمتُ أنه مستاء، ولا تدع ساتيبي تسيء معاملة حنة، ولا تنسَ أن تكتب إليّ عن الكتّان والزيت، واحرس محصول القمح وكل شيء يخصني لأنك أنت المسؤول عن كل شيء، وإذا غمر الماء أرضي فالويل لك ولسوبك".

فقالت رنزنب: أبي لم يتغير؛ فهو لا يزال يعتقد أن الأمور لا تجري كما ينبغي إذا كان غائباً، أجل، كل شيء كما هو.

فلم يُجِب حوري وإنما تناول رقعة من البردي وأخذ يكتب، ثم قالت له فجأة: لقد كنتَ تصلح لي الأسد الخشبي الذي كنتُ ألعب به، هل تذكر ذلك؟

ففوجئ بهذا السؤال لكنه ردّ بعد هنيهة قائلاً: نعم، لقد كنتُ أصنع ذلك من أجلك يا رنزنب.

- تيتي تلعب بنفس الأسد الآن.

ثم تنهدت وقالت: حين ذهب خاي إلى أوزيريس تولاّني حزن شديد، ولكنني الآن قد عدتُ إلى المنزل وسأهنأ بعيشتي مرة ثانية، وسأنسى لأن كل شيء هنا لم يتغير، أجل، لم يتغير شيء مطلقاً.

فسألها: أتظنين ذلك حقاً يا رنزنب؟

فنظرت إليه متعجبة ثم قالت: ماذا تعني؟!

- أعني أنه يوجد تغيّر دائماً، فثماني سنوات ليست بالشيء القليل.

- أجل، ولكن لم يتغير شيء هنا.

- إذن سيحدث تغيير.

- لا، أودّ لو يبقى كل شيء كما هو.

- ولكنك أنتِ نفسك الآن غير رنزنب التي ذهبَت مع خاي منذ ثماني سنوات.

- أظن أنني عدتُ، أو على الأقل سأعود كما كنتُ سابقاً.

فهزّ حوري رأسه قائلاً: لا يستطيع أحد أن يعود إلى الوراء.

- ولكنني لا أزال رنزنب.

- أجل، غير أن رنزنب يضاف إليها كلّ حين شيء من أثر الزمن، فأنت تتطورين تطوراً لا ينقطع.

فهزّت رأسها قائلة: لا؛ فأنت لا تزال حوري.

فردّ عليها قائلاً: هذا ما تظنينه، ولكن الواقع لا يؤيد هذا الظن.

فأطرقت هنيهة مفكرة ثم قالت: كيف؟ يحموز ما زال كما كان على قلقه وخوفه، وساتيبي لا تزال تنهره، وهي وكيت لا تزالان تتشاجران بسبب الحصُر والخرز، وحين أعود إليهما سأجدهما تتضاحكان معاً بعد الشجار، وكذلك حنة لا تزال تدب على الأرض وتتسمّع لما يقال، ثم تشكو حالها وتتحدث عن إخلاصها، وجدتي تلوم خادمتها في شأن القماش. لقد وجدتُ

كل شيء كما كان، وقريباً سيرجع أبي من سفره ويُحدِث ضجة قائلاً لهذا: "لماذا لم تفعل ذلك؟" ويقول لذاك: "كان ينبغي أن تفعل ذلك"، وسيبدو يحموز مهموماً، في حين يضحك سوبك غير مكترث، وسيدلل أبي أخي الصغير إيبي، مع أنه قد صار في السادسة عشرة من عمره، كما كان يصنع حينما كان طفلاً صغيراً، وهكذا لم يتغير شيء إطلاقاً.

ثم سكتت رنزنب وقد أنهكها الكلام فقال حوري بلطف: أنت لا تدرين يا رنزنب أن هناك شراً يأتي من الخارج فيصيب أثره الناس جميعاً، وأن هناك شراً ينبعث من الداخل دون أن تكون له دلالة خارجية تنمّ عنه، وهو ينمو ببطء يوماً بعد يوم.

وكان يتكلم وكأنما يحدّث نفسه، فنظرَت رنزنب إليه متعجبة ثم قالت له: ماذا تعني بذلك يا حوري؟ أنت تخيفني.

- وأنا خائف أيضاً.

- ولكن ماذا تعني؟ وما هذا الشر الداخلي الذي تتحدث عنه؟

فنظر إليها مبتسماً ثم قال: انسي ما قلتُه يا رنزنب، إنما كنتُ أفكر في الآفات التي تصيب المحاصيل.

* * *

الفصل الثاني

كانت ساتيبي تكلم زوجها يحموز قائلة له: يجب أن تثبت وجودك، فلن يقدّروك إلا إذا أثبتّ وجودك. أبوك لا يزال يقول: "يجب عمل هذا ويجب ترك ذاك ولماذا لم تفعل ذلك؟"، وأنت تصغي كالحمل الوديع ولا تردّ إلا بقولك: "نعم، نعم"، وتعتذر عن أشياء يزعم أبوك أنها كان ينبغي أن تُعمل، والربّ وحده يعلم أنها مستحيلة. أبوك يعاملك كأنك طفل، أو على الأكثر كأنك غلام صغير كما لو كنتَ في مثل سن إيبي.

فقال يحموز بصوته الهادئ: أبي لا يعاملني كما يعامل إيبي أبداً.

فوضعت ساتيبي يدها على كتف زوجها وقالت: أجل، هو لا يعاملك كما يعامله حقاً، فقد شُغف حباً بذلك الولد المدلَّل، ولكن التدليل يفسد إيبي يوماً بعد يوم؛ فقد أصبح متسكعاً مختالاً ولا يؤدي عملاً يُذكَر معتمداً على تسامح أبيه معه وانتصاره له دائماً. يجب عليك أنت وسوبك أن تتخذا موقفاً حازماً في شأن هذا الغلام.

فهزّ يحموز كتفيه وقال: وما فائدة ذلك؟

- أنت توشك أن تُفقدني عقلي! هل أنت إنسان بلا روح؟! كأنك لفرط وداعتك امرأة لا رجل، تسلّم بكل ما يقوله أبوك وتُقرّ بكل ما يفعله.

- وماذا أصنع؟ أنا أحب أبي كثيراً.

- أجل، أنت تحبه كثيراً وهو يستغل ذلك أسوأ استغلال، فتقبل منه التقريع واللوم بوداعتك المعهودة كما تعتذرُ عن أشياء ليست من ذنبك. يجب أن تناقشه وتردّ عليه كما يفعل سوبك، فسوبك لا يهاب أحداً.

- أجل، هذه حقيقة يا ساتيبي، ولكن لا تنسي أن أبي يثق بي أنا لا بسوبك، فهو لا يعتمد عليه مطلقاً ويترك كل شيء لتقديري أنا.

- ولهذا السبب يجب أن يجعلك أبوك شريكاً في المزرعة، فأنت تنوب عنه في المزرعة في أثناء سفره، وتقوم بمهمة كاهن كا أيضاً، كما أنه يترك الأمور كلها بيديك، ومع ذلك كله ليست لك أي سلطة. يجب أن تكون هناك تسوية عادلة؛ فأنت رجل في منتصف العمر الآن ولا يصحّ أن يعاملك كما لو كنت طفلاً.

- أبي يحب أن يسيّر الأمور بنفسه.

- هو يسرّه أن يرى كل فرد بالدار معتمداً عليه ملبياً لمطالبه، ولكن هذا أمر سيئ جداً ويزداد سوءاً مع الزمن، لذا يجب عليك أن تصارحه بجرأة حين يعود من السفر وأن تطالبه بتسوية مدوَّنة في وثيقة، وأن تُصرّ على أن يجعل لك مركزاً محدَّداً.

- لن يصغي أبي إليّ في هذا الأمر.

- إذن يجب عليكَ أن ترغمه على الإصغاء إليك. آه لو كنتُ أنا رجلاً، لو كنتُ أنا في مكانك يا يحموز لعلمتُ ماذا أفعل. أنا أحياناً أشعر أنني تزوجتُ دودة!

فاحمرّ وجه يحموز حين سمع ذلك ثم قال: سأرى ما يمكنني عمله، لعلّي... أجل لعلّي أتحدث معه وأرجوه.

- ليس المهم أن تكلم أباك بل المهم أن تعرف كيف تكلمه، وأن تكون رجلاً لا فأراً حينذاك.

* * *

كانت كيت تلاعب ابنتها الصغرى عنخِ التي تحبو أمامها، وكلما أمسكَت هذه الصغيرة عن الحبو أخذَت تشجعها بكلمات ضاحكة، وكانت تريد بذلك أن تلفت نظر سوبك إلى تعثّر صغيرتهما، ولكنها لم تلبث أن أدركَت أنه غير ملقٍ باله إليها، بل جلس مقطّب الجبين شارد الفكر فسألته: ماذا بك يا سوبك؟ أنت لا تنظر إلى عنخ، ألا يهمّك أن تراقبها وهي تحبو وتتعلم المشي؟

فقال سوبك بضجر: هناك أشياء أخرى تستحق التفكير.

- أليس كل شيء على ما يرام؟

فقال سوبك بكدر: أبي لا يثق بي، ومع أنه قد أصبح شيخاً عتيقاً في تفكيره إلاّ أنه ما زال يصرّ على أن يخطط لكل عمل يؤدّى هنا بنفسه، كما أنه لا يترك لي حرية التصرف في أيّ شيء.

- أجل، هذا أمر لا يسرّ.

- لو أن يحموز كان أكثر جرأة وأيدني لكان هناك أمل في

جعل أبي يرى الحقيقة بعينيه، ولكن يحموز جبان ينفذ تعليمات أبيه بحذافيرها.

وهنا أعطت كيت بعض الحلوى للطفلة وهي تقول: نعم.

في حين واصل سوبك كلامه فقال: أما بالنسبة لما يتعلق بالخشب فسأقول لأبي بعد عودته إنني تصرفت حسبما رأيت، فقد آثرت أن أتسلم الشحنة كتّاناً بدلاً من الزيت.

فقالت وهي ترقب طفلتها: أنت شجاع وبارع يا سوبك.

- وإذا انتقدني فسوف أُسمِعه بعض الحقائق هذه المرة، وإذا لم يترك لي حرية التصرف فسأغادر هذه المزرعة وأرحل بعيداً عنه.

- ترحل بعيداً؟! إلى أين؟

- إلى حيث أجد عملاً؛ فأنا لم أعد أطيق أن ينتهرني شيخ مغرور لا يترك لي مجالاً للتصرف.

- لا، لا يا سوبك، لا.

فنظر إليها برهةً متعجباً من لهجة الحزم التي بدت منها وهي التي اعتادت الخضوع له والموافقة على كل ما يقوله، ثم سألها قائلاً: ماذا تعنين يا كيت؟

- لن أدعك ترتكب هذه الحماقة؛ فالمزرعة كلها ملك أبيك، الأرض والمزروعات والماشية والأخشاب وحقول الكتّان وكل شيء، وحين يموت أبوك يصبح ذلك كله لك وليحموز ولأولادنا، أما إذا اختلفتَ مع أبيك وغادرتَ بيته فسوف يقسم نصيبك بين يحموز وإيبي، وأنت تعلم أنه يُؤثر إيبي بالنصيب الأوفى من حبه،

ولا شكّ أن إيبي يعرف ذلك ويستغله، فهو يتمنّى أن تتشاجر مع أمحوتب وتغادر بيته. لا، علينا أن نفكر في أطفالنا ومستقبلهم.

فنظر إليها ثم قال: المرأة داهية دائماً! ما كنتُ أحسبك بعيدة النظر إلى هذا الحد يا عزيزتي.

- لا تتشاجر مع أبيك ولا تردّ عليه، بل اصبر مرة أخرى.

- لعلك على صواب، ولكن قد تستمر هذه الحالة لسنوات عديدة، ويجدر بأبي أن يشركنا في المزرعة.

- لن يفعل ذلك؛ فهو لا بدّ أن يمتنّ علينا دائماً بأنه هو الذي يطعمنا ويكسونا وأننا جميعاً عالة عليه وأننا من دونه ما كنّا لنجد مأوى لنا.

- يبدو لي أنكِ لا تحبين أبي يا كيت، أليس كذلك؟

لم تُجِب بشيء، بل التفتت إلى صغيرتهما عنخ ونادتها قائلة: تعالي يا عزيزتي، هذه دمية لك، تعالي.

فنظر سوبك إليها نظرة حائرة ثم مضى في سبيله.

* * *

بعثت إيزا في طلب حفيدها إيبي فمضى إليها، وهو فتى وسيم الطلعة بادي السخط، فأخذت تنظر إليه بعينيها الضيقتين وتعنّفه بصوتها الصارخ قائلة: ما هذا الذي أسمعه عنك؟ أنت لا تريد أن تفعل هذا ولا تحب أن تفعل ذاك ولا تحب أن ترعى الثيران وتأبى أن تصحب يحموز أو تعمل في فلاحة الأرض، إذن كيف تصير الأمور إذا كان طفل مثلك يرفض ما يأمره به الكبار؟

فقال إيبي عابساً: أنا لست طفلاً بل أنا شابّ، ولا أحب أن أعامَل كطفل فأكلَّف هذا العمل أو ذاك دون أن يُسمَع لي رأي أو دون أن يُدفع لي أجر، كما لا أحب أن أتلقى أوامر من يحموز دائماً، فماذا يظن نفسه يحموز؟

- إنه أخوك الأكبر، وهو الذي يدير شؤون المزرعة عندما يكون ابني أمحوتب غائباً.

- يحموز غبي؛ فهو بطيء الحركة بليد الفهم، أما أنا فأبرع منه كثيراً، وكذلك سوبك غبي أيضاً، برغم كل تفاخره ببراعته، وقد كتب أبي إليهما موصياً بأن أؤدي العمل الذي يروقني.

- أنت غلام أفسده التدليل، وسوف أقول ذلك لأمحوتب.

- أبي يقدّر رجاحة رأيك، وأرجو ألا تُسخطيه عليّ.

- قد يكون هذا، لكنك يجب أن تعمل وأن تكون مطيعاً، ولا تنسَ أنك أصغر أفراد الأسرة سناً.

- وما شأن السن في ذلك؟ أبي صاحبُ الأمر هنا وأنا أعرف كيف أسيّره، وأنت تعلمين أن أبي رجل ضعيف رغم كل كلماته الضخمة وأنه...

ولم يتم إيبي كلامه، فقد رأى جدته تنظر من فوق كتفه إلى ما وراءه، فاستدار فرأى حنة واقفة خلفه وما لبثت أن قالت له: أتقول إن أمحوتب رجل ضعيف؟ أحسبه لا يسرّه أن يسمع أن هذا رأيك فيه.

فضحك إيبي ضحكة تدلّ على القلق قائلاً: لكنك لن تقولي له ذلك. تعالي وعديني بذلك يا حنة.

فتقدمت حنة حتى وقفت بجانب إيزا وقالت له: أنا لا أحب الفتنة وأنت تعلم ذلك، إنما أنا مخلصة لكم جميعاً ولن أنقل أيّ كلام إلا إذا شعرت أن واجبي يقتضي ذلك.

- لقد كنتُ أقصد معاكسة جدتي بما قلته، هذا كل ما في الأمر، وسأقول ذلك لأبي.

ثم أومأ برأسه لحنة وخرج من الغرفة، فنظرت حنة إليه ثم قالت إيزا بحدّة: هذا الغلام يقول كلاماً خطيراً، ولا أحب تلك الخواطر التي تجول بذهنه. أمحوتب يدلّه أكثر مما ينبغي.

ثم سألتها فجأة: هل يحموز في الدار؟

- نعم، لقد رأيته قادماً منذ قليل.

- إذن اذهبي فأبلغيه أنني أريد أن أتحدث إليه.

فخرجت حنة وأخذت تبحث عن يحموز حتى وجدته عند الشرفة فأبلغته رسالة جدته، فذهب إليها على الفور، ثم حيّاها فقالت له: أمحوتب سيأتي قريباً.

- أجل، وهذا يسرني.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- لقد نفذتُ تعليمات أبي بحذافيرها قدر استطاعتي.

- وما رأيك في إيبي؟

- أبي كثير التسامح معه، وفي هذا ضرر بالغ له.

- يجب أن توضّح ذلك لأمحوتب.

فبدا التردد على يحموز، لكنها وعدته بأن تؤيّده في ذلك، ولم يتكلم يحموز، بل اكتفى بأن نظر إليها وقد احمرّ وجهه ثم خرج.

* * *

الفصل الثالث

امتلأت الدار حركة استعداداً لقدوم سيّدها أمحوتب، وكانت مئات الأرغفة تُخبز وعشرات البط تحمَّر، وفاحت رائحة الكرّاث والثوم والتوابل، وكانت النساء يصِحن ويصدرن الأوامر، والخدم يجرون هنا وهناك، وفي كل مكان كنتَ تسمع همهمة تقول: "السيد قادم، السيد قادم".

وكانت رنزنب مشغولة بعمل أكاليل من الخشخاش وأزهار اللوتس وقد غمرها شعور بالسعادة، أجل؛ أبوها عائد إلى بيته. لقد استطاعت في الأسابيع القليلة الأخيرة أن تنزلق إلى حياتها القديمة بالدار دون أن تشعر، وقد ولّى عنها إحساس الغربة الذي ربما أثارته في نفسها كلمات حوري لها.

وقد نما إليهم أن ربّ الدار سيصل قبل غروب الشمس، فأمروا أحد الخدم أن يقف على شاطئ النيل ليعطي إشارة تنبههم حين يرى سفينة سيّده تقترب، وفجأة ارتفع صوته بالنداء المتفَق عليه، فرمت رنزنب ما كان في يدها من أزهار وجرت مع الآخرين صوب مرسى السفن على شاطئ النهر، وكان يحموز وسوبك قد سبقا إلى هناك فوقفا وسط جمع من القرويّين والصيادين والعمال والزارعين يهتفون ويلوحون بأيديهم.

كانت هناك سفينة ذات شراع مربع تجري في النهر مع ريح الشمال وخلفها سفينة المؤن تحمل رجالاً ونساء، فتبينت رنزنب على البُعد أباها جالساً وبيده زهرة لوتس وإلى جانبه امرأة حسبَتها مطربة. وعلت صيحات المنتظرين على الساحل فلوّح أمحوتب محيّياً، وأخذ الملاّحون يتأهبون لرسوّ السفينة، وارتفعت كلمات الترحيب بالسيّد. وبعد لحظات نزل أمحوتب إلى الشاطئ فحيّا أفراد أسرته وبقية المستقبلين، ونظرت رنزنب إلى أبيها فخُيّل إليها أن جسمه نحل وانكمش عمّا كان عليه.

قال أمحوتب وهو يقبّل أبناءه واحداً بعد آخر: يحموز يا عزيزي، أنا واثق أنك كنتَ نشيطاً في غيابي، وأنت يا سوبك يا بنيّ الوسيم لا تزال مرح القلب كما أرى، وهذا هو عزيزي إيبي، دعني أنظر إليك، لقد نموتَ وكبرت وصرت أقرب إلى الرجولة، وأنتِ يا رنزنب يا بنيّتي العزيزة، لقد عدتِ إلى بيتك، أما أنتما يا ساتيبي وكيت فأنتما أيضاً ابنتان لي، وحنة، حنة المخلصة.

كانت حنة راكعة تقبّل ركبتيه وتمسح دموع الفرح التي انهمرت من عينيها بشكل يلفت الأنظار، فقال لها أمحوتب: يسرّني أن أراك يا حنة. هل أنت بصحة جيدة ومسرورة؟ ما زلت على إخلاصك الدائم لنا، وهذا شيء يسرّ القلب.

ثم التفت إلى حوري وقال له: وهذا حوري البارع بقلمه وحساباته، لا شكّ أن الخير قد زاد.

وبعد أن انتهت التحيات وخفّت الضجة رفع أمحوتب يده طالباً السكوت ثم قال بصوت مرتفع واضح: يا أبنائي وبناتي وأصدقائي أريد أن أخبركم بشيء. لقد مكثتُ سنين وحيداً كما تعلمون؛ فزوجتي، أمك يا يحموز أنت وسوبك وإيبي، قد ذهبت

إلى أوزيريس منذ سنوات، ولهذا أتيتُ لكما يا ساتيبي أنت وكيت بأخت جديدة تشارككما في الدار. ها هي ذي زوجتي نوفريت التي ستحبّانها من أجلي، وقد جاءت معي من ممفيس في الشمال، وستبقى معكما هنا عندما أسافر ثانية.

ثم أشار إلى المرأة التي جاء بها معه. وفوجئ أفراد الأسرة بقدومها فوقفوا واجمين، فقال أمحوتب بلهجة تدلّ على شيء من الغيظ: تعالوا يا أطفال وحيّوا نوفريت. ألا تعلمون كيف تحيّون زوجة أبيكم حين يحضرها إلى بيته؟

فحيّاها الجميع في شيء من التردد وكثير من البرود، وهنا قال أمحوتب بحماسة مصطنَعة تغطّي غيظاً مكتوماً: هذا حسن يا نوفريت، والآن ستأخذك ساتيبي وكيت ورنزنب إلى جناح النساء. أين الحقائب؟ هل جيء بها من الشاطئ؟

وعندما ذهبَت النساء نظر أمحوتب إلى أولاده قائلاً لهم: كيف حال المزرعة؟ هل سار كل شيء بانتظام؟

فبدأ يحموز يشرح ما قد تمّ قائلاً: الحقول الجنوبية التي كانت قد أُجّرت إلى نختة...

ولكن أباه قاطعه قائلاً: دع التفصيلات الآن يا يحموز فبإمكانها أن تنتظر. الليلة لدينا ابتهاج وفرح وغداً نعمل أنا وأنت وحوري. والآن هيا بنا لندخل البيت. تعال إليّ يا إيبي يا ولدي، لقد طالت قامتك حتى علا رأسك رأسي.

مشى سوبك عابساً وراء أبيه وإيبي ثم همس في أذن يحموز قائلاً: حُليّ وثياب، ألم تسمع؟ لا شكّ أنه أنفق على ذلك ثمن محصول المزارع التي في الشمال، حقّنا.

فأجابه يحموز هامساً: صه كي لا يسمعك.

وجاءت حنة إلى غرفة أمحوتب تبتسم وقد أعدّت له حماماً فقال لها: حسناً يا حنة، ما رأيك في ذوقي واختياري؟

- إنها جميلة، بل رائعة الجمال. ما أجمل شعرها وما أبدع قوامها! ماذا أقول أكثر من ذلك؟ زوجتك الراحلة مسرورة في عالَمها الآخَر لأنك اخترتَ مثل هذه الزوجة لتؤنس حياتك.

- أتظنين ذلك يا حنة؟

فأجابت على الفور قائلة: أنا متأكدة مما أقوله يا أمحوتب. لقد حان الوقت لأن تستمتع بالحياة بعد أن حزنت كل هذه السنين.

- وأنا أيضاً رأيتُ أنه قد آن الأوان لأعيش كما يعيش الرجال، ولكن هل تظنين أن زوجتَي ولدَيّ وابنتي قد ساءهنّ ذلك؟

- يحسن بهنّ ألاّ يستأن مما يسرك؛ أليس جميع من في هذه الدار يعتمدون عليك في معاشهم؟

- صدقتِ يا حنة، صدقت.

فأتمّت كلامها قائلة: هم يأكلون ويكتسون من خيرك، وكل ما هم فيه من رغد ورخاء إنما هو ثمرة جهدك وكدّك.

- هذا صحيح. أنا أعهد فيكِ الذكاء وسلامة الحكم على الأمور دائماً يا حنة.

- آه لو أن الآخرين يقدّرونني كتقديرك لي.

- ماذا تعنين؟ هل أساء إليكِ أحد؟

- إنهم لا يقصدون الإساءة، ولكنهم يفترضون دائماً أنني أستطيع العمل دون انقطاع. وأنا مسرورة بذلك، ولكن كلمة محبة أو تقدير هي كل ما يحتاجه الإنسان.

- ثقي أنك ستسمعين منّي مثل هذه الكلمة دائماً، ولا تنسي أن هذا البيت بيتك.

- أنت كثير العطف عليّ يا سيدي.

ثم سكتت لحظة قبل أن تقول: الخدم ينتظرون بالماء الساخن في الحمّام يا سيدي، وبعد أن تستحم وترتدي ملابسك تريدك أمك أن تذهب إليها.

- آه، أمي، أجل، بالطبع.

وبدا عليه الارتباك ثم قال: بالطبع كنت أنوي أن أذهب إليها لأحيّيها. أبلغيها أنني سوف آتي إليها.

* * *

ارتدت إيزا أحسن ثوب كتّاني عندها ثم وقفت تنظر إلى ابنها باهتمام لا يخلو من سخرية وقالت له: مرحباً بك يا أمحوتب. لقد عدتَ إلينا إذن، ولم تعُد وحدك كما سمعتُ، أليس كذلك؟

فقال أمحوتب بشيء من الخجل: إذن فقد سمعتِ؟

- طبعاً سمعت؛ فالبيت يملؤه طنين هذا النبأ، ويقولون إن الفتاة جميلة وصغيرة السن.

- إنها في التاسعة عشرة من عمرها، وليست قبيحة المنظر.

فضحكت إيزا بصوت يشبه صوت الدجاج قائلة: ليس هناك

أحد أكثر حمقاً من عجوز أحمق.

- لستُ أفهم ما تقصدين يا أماه.

- لقد كنتَ دائماً أحمق يا أمحوتب.

فبدا الكدر في وجهه ثم قال لها: أتحسبين أنه من الشذوذ أن يجيء رجل بزوجته إلى بيته؟

- هذا ليس أمراً شاذاً، ولكن الرجال حمقى عادة.

- لستُ أدري أي حمق في هذا!

- أتظن أن وجود فتاة كهذه سيؤدي إلى توافر الانسجام في الدار؟ ساتيبي وكيت ستثوران وستحرضان زوجيهما...

فقاطعها قائلاً: وما شأنهما بذلك؟ ليس لهما حق في المعارضة.

فهزّت رأسها متحسرة وقالت: أجل، ليس لهما حقّ مطلقاً.

فأخذ أمحوتب يذرع أرض الغرفة غاضباً ثم قال: ألا يحقّ لي أن أفعل ما أشاء في بيتي؟ لقد عدت لأنعم بشيء من السكينة، ولكنني أجد من يقول لي إن أمامي صعاباً. حتى أنت يا أماه تنكرين عليّ أن تكون لي زوجة كغيري من الرجال.

- أنا لستُ غاضبة، ولكنني وجدتُ سبباً للتسلية. سيكون في هذا البيت رياضة شائقة أستطيع أن أرقبها، غير أنني أقول لك إنه يحسن بك أن تأخذ زوجتك معك إذا أردتَ أن تسافر إلى الشمال مرة أخرى.

- مكانها هنا في بيتي، والويل لمن يسيء إليها.

- الأمر لا يتعلق بإساءة المعاملة، ولكن تذكّر أنه من السهل أن تُشعِل ناراً في هشيم جاف!

* * *

استمع أمحوتب إلى سوبك وهو يشرح ما تمّ في صفقة الخشب صامتاً، ولكن ما لبث أمحوتب أن قاطعه قائلاً له بحدّة: أجل، أجل، لقد ظننتَ نفسك تعرف أفضل مما أعرف فخالفتَ تعليماتي. هكذا يكون الأمر دائماً، إلاّ أن أكون هنا لأشرف بنفسي على كل شيء. أنا لا أتصور ماذا تصيرون إليه دوني.

وهنا قال سوبك بعناد: لقد لاح لي أنه في الإمكان الحصول على ربح أكبر ولذا جازفت، فالإنسان لا يمكن أن يكون دائماً حذراً حريصاً.

- ليس لديك شيء من الحذر، فأنت متهور طائش سيئ التقدير دائماً.

- وهل تترك لي أية فرصة لأمتحن فيها تقديري؟

- لقد تصرفتَ هذه المرة ضد أوامري الصريحة.

- أوامرك؟ هل عليّ أن أتلقى الأوامر إلى الأبد؟ أنا رجل ولست طفلاً.

فتقدم منه أمحوتب وهو يتميز من الغيظ ثم صاح به قائلاً: أيها الولد الوقح، أتقول ذلك لأبيك؟ خذ حذرك وإلا طردتك من بيتي.

- وإذا لم تأخذ أنت حذرك فسأغادر أنا بيتك. في ذهني آراء

جديرة بأن تجلب الثروة لولا أنني مقيَّد بالحذر والحرص ولا يُسمَح لي بحرية التصرف.

فسكت أمحوتب هنيهة ثم سأله: هل انتهيت؟

- نعم، لم يعد عندي ما أقوله.

- إذن اذهب وأطعم الماشية، ليس هذا وقت الكسل.

فخرج سوبك غاضباً ومضى في طريقه، وعندئذ كانت نوفريت تتقدم بخطى بطيئة باتجاههما. وكان يحاسب ولده الآخر يحموز قائلاً له: ما الذي دهاك حتى تركتَ سوبك يتصرف هكذا؟ كان يجب عليك أن تمنعه. ألا تعلم أنه سيئ التصرف في البيع والشراء؟ هو يتوهّم أن تجري الأمور كما يتمنى هو أن تجري؟

فقال يحموز معتذراً: أنت لا تدري مدى الصعاب التي ألقاها يا أبي. لقد أمرتَني بأن أعهد إلى سوبك في مهمة بيع الخشب فكان لزاماً عليّ أن أتركها له ليفعل فيها ما يراه.

- وهل له رأي؟ عليه أن يفعل ما آمره به، وكان عليك أن تنتبه لذلك.

فاحمرّ وجه يحموز ثم قال: أنا؟ وهل لي سلطان عليه؟

- أي سلطان؟ السلطان الذي عهدتُ به إليك.

- ليس لي مكانة حقيقية إلاّ أن أكون شريكك قانوناً.

ثم سكت حين رأى نوفريت قادمة إليهما وقالت لأمحوتب: ألا تأتي إلى الديوان بقرب البحيرة؟ الجو رائع هناك. لا شكّ أنك قد انتهيتَ من إعطاء أوامرك، أليس كذلك؟

- سآتي بعد لحظة يا نوفريت.

- لا، تعالَ الآن، أريد منك أن تأتي الآن.

فبدا عليه السرور والخجل معاً، فقال يحموز بسرعة قبل أن يدع لأبيه فرصة للكلام: أريد أن أكلمك في أمر هامّ أولاً، أريد أن أطلب منك...

فأدارت نوفريت ظهرها ليحموز وقالت لأمحوتب: ألا تستطيع أن تفعل في بيتك ما تشاء؟

وعندئذ قال ليحموز بحدّة: كلمني في وقت آخر.

ثم تركه وخرج مع نوفريت، فوقف يحموز ينظر إليهما وقد جمد في مكانه بالشرفة، وما لبثت ساتيبي أن أقبلت إليه من داخل الدار فسألته باهتمام: هل كلمتَ أباك؟ وبماذا أجاب؟

- لا تكوني قليلة الصبر يا ساتيبي، فالظرف لم يكن مناسباً.

فصاحت به قائلة: هذا ما تقوله أنت وهذا ما سوف تقوله دائماً، ولكن الحقيقة أنك تهاب أباك. ألم تعدني بأن تكلمه في أول يوم يعود فيه، فماذا حدث؟

ثم سكتت من فرط الجهد فقال لها يحموز بهدوء: أنت مخطئة يا ساتيبي، فقد كنت أكلمه ولكننا قوطعنا.

فصاحت دهشة: قوطعتما؟! ومن ذا الذي قاطعكما؟

فتمتم قائلاً: نوفريت.

وهنا قالت ساتيبي: نوفريت؟ تلك المرأة؟ ما كان يليق بأبيك

أن يتركها تقاطعه حين يتحدث في شأن أعماله مع ولده الأكبر؛ فالنساء لا يصحّ أن يتدخلن في الأعمال.

ولعل يحموز كان يتمنى في قرارة نفسه لو تفعل ساتيبي وفق كلمتها هذه، ولكنها لم تترك له فرصة الكلام بل استطردت قائلة: كان ينبغي لأبيك أن يوضّح لها ذلك دون إبطاء.

- أبي لم يبدُ عليه أنه استاء من مقاطعتها لنا.

- هذا أمر شائن. هذه المرأة سحرته؛ فهو يتركها تقول وتفعل ما تشاء.

كان كلامها ينبئ عن معنى خفي ثم قالت: لن يكون أبوك هنا دائماً، ولن يلبث إلا أن يسافر ثانية إلى أملاكه في الشمال، وعندئذ سنرى.

ثم ضحكت ساتيبي ضحكة عالية جافة وتركت زوجها عائدة من حيث أتت.

* * *

كان الأطفال كعادتهم يجرون ويلعبون عند البحيرة، وكان أمحوتب جالساً يحتسي الشاي وبجانبه نوفريت، ونظر إلى الأطفال ثم قال: الأطفال مولَعون باللعب على حافة البحيرة، ولكن ما أشدّ ضجيجهم!

فقالت نوفريت بلهجة ساخرة: أجل، وقد كان من الممكن أن يشمل السكون هذه البقعة، ولكن حيثما جلس ربّ الدار ملتمساً الهدوء يجب أن يقابَل بالاحترام اللائق.

وكانت هذه طريقة جديدة لم يعرفها من قبل فقال بتردد: أنا في الحقيقة لا أبالي بضجيجهم، وقد اعتادوا اللعب هنا.

- حين تكون بعيداً عن هنا لا ضير من أن يلعبوا، ولكن عندما تكون موجوداً ينبغي أن تلقى قدراً كبيراً من الاحترام بقدر ما تبذله من جهد حيال أسرتك.

- أنت شديدة الحرص عليّ يا نوفريت، أجل، أنت حقاً فتاة طيبة لا تفكرين إلا في راحتي.

- ما يسرّك يسرّني.

ثم توجهت إلى كيت قائلة لها بجفاء: خذي الأطفال بعيداً يا هذه.

فنظرت إليها دون أن تدرك ما قالته لها فسألتها: بعيداً؟ ماذا تعنين؟ إنهم يلعبون هنا دائماً.

- أمحوتب يريد الهدوء وهؤلاء الأطفال يحدثون ضوضاء.

- احذري مما تقولين يا نوفريت؛ فأمحوتب يفرح برؤية أحفاده يلعبون هنا، وقد صرّح بذلك.

- ليس بعد اليوم. لقد بعثني إليكِ لأبلغك رغبته في أن تُدخلي هذه الذرية الصاخبة إلى الدار لأنه يريد أن يجلس معي في هدوء.

فتمتمت كيت قائلة: معكِ؟!

ثم مضت من فورها إلى أمحوتب قائلة له: زوجتك تزعم أن عليّ أن آخذ الأطفال إلى داخل البيت. لماذا؟ وما الخطأ الذي

ارتكبوه؟ ولماذا يُبعَدون عن مكان لعبهم؟

فردّت نوفريت بصوت ناعم: أظن أن رغبة سيد الدار كافية وأنها لا تناقَش.

فانتهز أمحوتب هذه الفرصة وقال: صدقتِ، لماذا ينبغي لي أن أبدي أسباباً؟ لمن هذه الدار؟

فأخذَت كيت تصعّد بصرها في نوفريت قائلة: أظنها هي التي أرادت إبعادهم.

- نوفريت تفكر في راحتي ومتعتي، ولا أحد غيرها يراعي ذلك في هذه الدار، اللهم إلا حنة المسكينة.

فسألته كيت: إذن لا يصحّ أن يلعب الأطفال هنا بعد اليوم، أليس كذلك؟

- بلى، لا يلعبون حينما أكون جالساً هنا.

لم تستطع كيت أن تكبح جماح غضبها فصاحت به قائلة: لماذا تدع هذه المرأة تبغّضك فيمن هم من لحمك ودمك؟

فغضب وصاح بها قائلاً: أنا الذي يقرر ما يُفرَض عمله هنا، لا أنتِ!

وقفت كيت لحظة بلا حراك، ثم ردّت بصوت خلا من كل عاطفة: سآخذ الأطفال إلى داخل المنزل.

ثم سارت خطوة أو خطوتين حتى إذا ما صارت أمام نوفريت قالت لها همساً: هذا كله من تدبيرك، ولن أنسى ذلك أبداً.

* * *

الفصل الرابع

تنفّس أمحوتب الصعداء بعد أن انتهى من أدعيته، ثم قام بصب السوائل وحرق البخور وتوزيع الصدقات وكل ما يوجبه عليه مركز كاهن المقبرة وضميره الحيّ من جميع الوجوه، وما لبث أن عاد إلى الغرفة المجاورة للمقبرة حيث كان حوري ينتظره فأخذا يبحثان شؤون الزراعة والحاصلات والماشية والأخشاب وأرباحها. وبعد نحو نصف الساعة أومأ أمحوتب برأسه مرتاحاً ثم قال لحوري: أنت بارع في الأعمال يا حوري.

فابتسم حوري وقال له: ذلك لأنني قضيت عدة سنوات وكيلاً لأعمالك.

- وأنت وكيل أمين حقاً. والآن أريد أن أبحث معك أمراً آخر. إيبي يشكو من ضآلة مركزه وتبعيته لأخيه الأكبر.

- إيبي لا يزال صغير السن.

- ولكنه يُبدي مقدرة فائقة، وهو يشعر بأن أخوَيه لا ينصفان في معاملته، والظاهر أن سوبك يعامله بعنف وأن ما يتخذه يحموز من حيطة وحذر يضايقه، كما أنه لا يريد أن يتلقى أوامر إلاّ منّي أنا وحدي بحكم أنني أبوه ولي عليه هذا الحق.

- هذا صحيح، وقد لفت نظري أن هذه نقطة ضعف هنا في المزرعة. أتسمح لي أن أتكلم بصراحة؟

- تكلم كما شئت.

- يجب أن تترك خليفة لك مزوَّداً بسلطة حقيقية في أثناء سفرك.

فقال أمحوتب: ألستَ نائباً عنّي في أعمالي أنت ويحموز؟

- بلى، نحن ننوب عنك في غيابك، ولكن هذا لا يكفي. لماذا لا تعيّن أحد أولادك شريكاً لك بعقد شرعي؟

فعقد أمحوتب حاجبَيه وأخذ يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً ثم قال: وأيّ أبنائي ترشحه لذلك؟ سوبك مستبدّ برأيه ولا يخضع لرأيي، كما أنني لا أثق بسلامة حكمه في كل الأمور.

- يحموز أكبر أبنائك، وهو لطيف ووديع ومخلص.

- أجل، ولكنه هيّاب مستسلم يوافق كل إنسان على رأيه. ليت إيبي كان أكبر سناً.

- من الخطر أن تضع السلطة في يد فتى حدَث.

- صدقت، صدقت يا حوري، سأفكر فيما قلتَه لي. يحموز ابن طيب جداً مطيع.

- أنا موقن أنك ستتصرف بحكمة.

ثم تأوّه الأب وقال: أن تحكم أسرة فهذه مهمة شاقة جداً، وبخاصة النساء تصعب سياستهن؛ فساتيبي حادة الطباع وكيت دائمة العبوس، ولكنني بيّنتُ لهما أن نوفريت يجب أن تلقى

المعاملة اللائقة، وأحسب أنه يمكن القول...

ثم أمسك ولم يتم كلامه، ففي تلك اللحظة جاء خادم فوقف يلهث تعباً من صعود الدرب المرتفع ثم قال: سيدي، لقد وصلَت سفينة فيها كاتب يُدعى كامني معه رسالة من ممفيس.

فقام أمحوتب وقال: مشكلات جديدة ولا بدّ من حلها. إذا لم أشرف بنفسي على كل شيء تضطرب الأمور كلها.

* * *

كانت رنزنب تتمشّى على شاطئ النيل، وإذا بها تسمع هرجاً وصياحاً وترى أُناساً يجرون إلى مرسى السفن، فأسرعت لترى ما هنالك، وسرعان ما أبصرت سفينة قد وقف بها شابّ ما إن رأته وتبيّنَت طلعته حتى كاد قلبها يتوقف عن الخفقان، فقد خُيّل إليها أنه خاي وقد عاد إليها من عالَم الموتى، ولكنها ما لبثت أن سخرت من نفسها ولا سيما بعد أن اقترب الشابّ فإذا هو في مثل قوامه ولكنه أصغر منه سناً وله وجه وسيم وثغر ضاحك.

ثم سمعته يذكر لمستقبليه أنه قادم من أملاك أبيها في الشمال وأنه كاتب هناك واسمه كامني، فبعثوا إلى أمحوتب خادماً يخبره بذلك ثم اصطحبوا الكاتب الشاب إلى داخل المنزل حيث قُدّم له طعام وشراب، وسرعان ما جاء الأب وانهمك معه في حديث طويل.

ولم تهتمّ رنزنب كثيراً بهذا، ولكنها قدّرت براعة كامني في كشف ذلك التلاعب، ولم تشكّ في أن أباها سيقدّر تلك البراعة أيضاً، ثم ما لبثت أن شُغلت بما تلا ذلك، فقد أصدر أبوها أمره

بإعداد عدة سفره دون إبطاء، مع أنه كان قد اعتزم ألاّ يسافر قبل شهرين.

ثم دعا الأب كلّ من في البيت وأخذ يُصدر الأوامر بما هو مفروض أن يُعمل، ثم فصّل ليحموز ما عليه فعله وما عليه تركه، ثم أوصى سوبك بأن يتخذ غاية الحيطة في أمور أخرى ذكرها له، وكان ذلك كله أمراً مألوفاً لرنزنب، وقد لاحظت أن يحموز شديد الإصغاء إلى أوامر أبيه ونواهيه وأن سوبك عابس كعادته وأن حوري هادئ مطمئنّ، أما إيبي فقد رفض أبوه مطالبه بحدّة غير معتادة فقال له: أنت أصغر سناً من أن يُحدَّد لك مرتب خاصّ، وعليك أن تطيع يحموز؛ فهو يعرف رغباتي وأوامري.

ثم وضع يده على كتف ابنه الأكبر وقال له: أنا أثق بك يا يحموز، وحين أرجع من سفري سنتكلم معاً في مسألة الشركة.

فاحمرّ وجه يحموز من السرور ورفع قامته أكثر من ذي قبل ثم قال: كل شيء سيجري وفق مشيئتك، غير أن حنة أحياناً تثير فتنة بلسانها.

- هذا هراء، وكل النساء كذلك، وأما كامني فسيبقى هنا ليساعد حوري، وأما تلك الأرض التي أجّرناها إلى المرأة...

ثم مضى في حديثه فلم يغادر كبيرة ولا صغيرة من شؤون الأعمال المطلوبة في غيبته إلا بسط رأيه فيها وتعليماته بشأنها، ولما حانت ساعة الرحيل انتحى بنوفريت ناحية وقال لها: أأنت مطمئنة إلى البقاء هنا؟ أليس الأفضل أن تصحبيني في سفري؟

هزّت نوفريت رأسها وابتسمت قائلة: لن تغيب عنّي طويلاً.

- قد أغيب ثلاثة أشهر وربما أربعة، فمن يدري؟

- سأصبر حتى تعود، وسأكون مستريحة هنا.

- لقد أوصيتُ أبنائي جميعاً بأن يحوطوك بكل رعاية، أمّا إذا شكوت شيئاً فسوف تكون التبعة على رؤوسهم.

- أنا موقنة أنهم سيفعلون ما أمرتَهم به.

ثم سكتت لحظة وسألته: مَن الجدير بثقتك هنا من غير أفراد الأسرة؟

- حوري؛ فهو يدي اليمنى، وهو ذكي حكيم.

- لكنه هو ويحموز بمثابة أخوَين، فربما...

- كامني سيبقى هنا، وسآمره أن يضع نفسه في خدمتك أيضاً، وإذا وجدتِ ما تشكين منه فأخبريه ليكتب إليّ بشكواك.

- هذه فكرة صائبة؛ فكامني جاء من الشمال وهو يعرف أبي.

قال لها أمحوتب: وهناك حنة أيضاً...

فقطعت كلامه قائلة: أجل، حنة. فلتدعُها لتكلمها في ذلك أمامي الآن.

فأومأ برأسه موافقاً وقال: هذه فكرة صائبة.

ثم أرسل في طلب حنة فجاءت مهرولة وهي تغالي في إبداء الأسف لسفره فقاطعها قائلاً: أجل، أجل، ولكن لا بدّ من السفر؛ فمقدَّر عليّ ألاّ ألقى راحة ولا استقراراً. أنتِ شديدة الإخلاص

صادقة الولاء لي يا حنة، لهذا أعهد إليك بحراسة نوفريت في أثناء غيابي؛ فهي عزيزة جداً عليّ.

- من كان عزيزاً عليك لا بدّ أن يكون عزيزاً عليّ أيضاً.

- حسناً، إذن عليك أن تخلصي لها الخدمة.

فالتفتَت حنة إلى نوفريت وقالت لها: أنت رائعة الجمال يا نوفريت، وهذا أصل المتاعب؛ فنساء الدار يشعرن بالغيرة منك، ولكنني سأعتني بك وسأخبرك بكل ما يُقال وما يحدث. يمكنك أن تعتمدي عليّ.

فابتسمت نوفريت قائلة: أنا أفهمك يا حنة، وأظن أنني أستطيع الاعتماد عليك.

فقال أمحوتب: إذن قد رُتّب كل شيء، أجل، كل شيء على ما يُرام. التنظيم هو سرّ القوة والنجاح.

* * *

اعتادت رنزنب أن تصعد إلى المقبرة في كثيراً، وكانت أحياناً تجد هناك يحموز وحوري معاً وأحياناً تجد حوري وحده، وقد كانت تشعر بالراحة والطمأنينة هناك دائماً، وكان يسرّها أن تلقى حوري لارتياحها إلى هدوئه ورزانته، وكانت تجلس في ظل باب الغرفة الصخرية رافعة إحدى ركبتيها بين يدَيها، ثم تنظر إلى الوادي الآخَر حيث يجري وسطه النيل متدفق الماء ساطعاً في ضوء الشمس. قالت رنزنب لحوري يوماً: أنا خائفة.

- من أيّ شيء تخافين يا رنزنب؟

فسكتت لحظة ثم قالت: أتذكر يوم قلتَ لي إن هناك شراً ظاهراً يأتي من الخارج وشراً خفياً ينبعث من الداخل؟

- نعم، أذكر ذلك.

- لقد حسبتُك يومئذ تعني الآفات التي تصيب النبات، ولكنني أرى الآن أن قولك هذا ينطبق على الإنسان أيضاً.

- هل أدركتِ ذلك؟ أجل، لقد أصبت يا رنزنب.

- ما قلتَه واقع الآن في بيتنا هناك، فقد جاء شرّ من الخارج، وأنا أعرف من أتى به، نوفريت.

- أتظنين ذلك؟

- نعم، أنا أعي ما أقوله. استمع إليّ يا حوري، حينما جئتُ إليك هنا وقلتُ لك إن كل شيء كما كان في الماضي، فهذا ما كنت أراه وقتئذ، أما الآن فقد تغيرت الحال، فساتيبي وكيت في شجار دائم، وهما تتبادلان ألفاظاً مؤذية، وكل منهما يسرّها أن تجد كلامها قد أصاب الهدف وآذى الأخرى، وهذا فظيع يا حوري.

- لقد علمتُ بحدوث هذه الأمور، ولكن لماذا تلقين اللوم على نوفريت؟

- لأن كل ذلك من صنعها، فهي تقول بضع كلمات ماكرة خبيثة فتشتعل نار الشجار، وهي بارعة في اختيار ما تقوله، وأحياناً أعتقد أن حنة هي التي تخبرها.

- أجل، وأنا أظن ذلك أيضاً.

- أنا لا أحب حنة، وأكره طريقتها في التجسس هنا وهناك.

حنة تُخلص لنا جميعاً ولكننا نبغضها جميعاً.

- ما أعجبك من طفلة يا رنزنب!

ثم قطع كلامه فجأة وقال: ها هي ذي نوفريت مقبلة.

فنظرت رنزنب ثم أخذ الاثنان يرقبان نوفريت وهي تصعد الدرب المنحدر الموصل إلى المقبرة، ولما بلغت مكانهما ابتسمت ابتسامة ماكرة ثم قالت لرنزنب: إذن فهذا هو المكان الذي تتسلّلين إليه كل يوم يا رنزنب؟

فلم تجب رنزنب وشعرت بمثل شعور الطفل الذي يغضب عندما يكشف أحد مخبأه، ثم نظرت نوفريت حولها وقالت: أهذه هي المقبرة الشهيرة؟

فأجاب حوري قائلاً: نعم يا نوفريت.

فنظرت إليه وقالت له وهي تبتسم بخبث: لا شكّ أنك تجدها مريحة، وأنت رجل أعمال بارع كما سمعت.

- إنها مريحة لنا جميعاً لأن الموت مصدر ربح دائماً.

فشعرت نوفريت برجفة حين أبصرت موائد الصدقات ومدخل القبر والباب الكاذب الذي لا يولَج، ثم قالت: أنا أكره الموت.

فقال حوري بهدوء: لا ينبغي لك ذلك؛ فالموت هو المصدر الرئيسي للثروة في مصر، الموت هو الذي اشترى لك الجواهر التي تتزينين بها يا نوفريت، والموت هو الذي يطعمك ويكسوك.

فنظرت إليه ملياً ثم قالت: ماذا تعني بذلك؟

- أعني أن أمحوتب كاهن هذه المقبرة، وكل ما يملك من أراض وماشية وخشب وكتّان وشعير إنما هو هبة من قبر.

وسكت برهة ثم استطرد قائلاً: نحن المصريين قوم عجيبون؛ نعشق الحياة ونشرع مبكّرين في التحضير للموت، وفيه تُنفق ثروة البلاد في تشييد الأهرام والمقابر وصرف هبات القبور.

فقالت نوفريت بعنف: دع حديث الموت يا حوري؛ أنا لا أطيق سماعه.

- أنت تحبين الحياة لأنك مصرية صميمة ولأنك تشعرين بظلّ الموت قريباً منك أحياناً.

فأسكتته نوفريت بإشارة من يدها ثم خرجت من الغرفة ومضت هابطة الدرب فقالت له رنزنب: يسرّني أنها ذهبت. لقد أخفتَها يا حوري.

- أجل، وهل أخفتُك أيضاً؟

- لا؛ فكل ما قلتَه صحيح، غير أنني لم أكن قد فكرت في الأمر من هذه الوجهة. أبي كاهن مقبرة حقاً.

ثم نظرت إليه نظرة حائرة ثم ما لبثت أن لفت نظرها شيء آخَر فقالت له: أنظر، نوفريت تتحدث مع سوبك هناك وهي تضحك! آه، لا، لا شيء. ظننت أن سوبك سيضربها، ولكنها متجهة نحو البيت، أما سوبك فقادم إلى هنا.

جاء سوبك ثائراً يقول: ليت تمساحاً يلتهم هذه المرأة! لا شكّ أن أبي قد جُنّ حين اتخذها زوجة له.

فسأله حوري: ماذا قالت لك نوفريت؟

فلم يجب سوبك وأخذ يمشي جيئة وذهاباً، ثم تناول قطعة صخر فقذف بها إلى الوادي، وكأنما سرّه صوت ارتطامها بالأرض فتناول قطعة أكبر، ثم إذا به يرى أفعى كبيرة تخرج من تحتها وترفع رأسها ويسمع لها فحيحاً، فتناول سوبك هراوة وأخذ يضربها بعنف، واستمر بضربها وعيناه تكادان تقدحان بالشرر، فصاحت به رنزنب قائلة: كفى يا سوبك، كفى، لقد ماتت.

فتوقف عن الضرب وقال ضاحكاً: لقد نقص عدد الأفاعي السامة في العالَم واحدة.

ثم ضحك ثانية كأنما سره ما فعل، ثم عاد من حيث أتى هابطاً الدرب فقالت رنزنب لحوري بصوت ضعيف: يخيَّل إليّ أن سوبك يهوى القتل.

- أجل.

- الأفاعي خطرة، ولكن ما كان أجمل هذه الأفعى!

ثم نظرت إلى الأفعى الميّتة فشعرت برجفة تسري في بدنها

* * *

حينما عادت رنزنب إلى المنزل وجدت كامني جالساً في الشرفة الأرضية وأمامه لفة من ورقة البردي، وكان يغنّي فوقفت تستمع، ثم احمرّ وجهها ودخلت المنزل مسرعة حتى كادت تصطدم بنوفريت التي قالت لها: لماذا تسرعين هكذا يا رنزنب؟

كان صوت نوفريت حاداً قاسياً، فنظرت إليها رنزنب متعجبة

ورأتها لا تبتسم كعادتها، بل يبدو عليها الجدّ والصرامة ويداها منقبضتان إلى جانبَيها فقالت لها: أنا آسفة يا نوفريت، فأنا لم أرك؛ فالقادم من الخارج يجد هنا عتمة.

- أجل، هنا عتمة وفي الخارج ضوء وسرور، لا سيما إذا كان كامني يغني وأنتِ تصغين. هو يجيد الغناء، أليس كذلك؟

- بلى.

- لماذا لم تمكثي لتستمعي؟ هل هذا يسوء كامني؟

فصمتت رنزنب وقد شعرت بالغيظ والقلق، ثم عادت نوفريت تسألها: ألا تحبين أغاني الحب يا رنزنب؟

- وماذا يعنيك من أمر ما أحب وما أكره؟

فنظرت إليها نوفريت بخبث وأجابت: إذن فالقطط الصغيرة لها أظافر.

- ماذا تعنين بذلك؟

فضحكت نوفريت ساخرة ثم قالت: أعني أنك لست بلهاء كما يبدو عليك، وترين أن كامني وسيماً، ولا شكّ أن هذا يسرّه على كل حال.

فحدجتها رنزنب بنظرة ازدراء قائلة: أنت بغيضة حقاً.

ثم تركتها ودخلت إلى جناح النسوة في مؤخرة الدار في حين تلاحقها ضحكات نوفريت يتخللها صوت كامني وهو ما زال ينشد أغنيته.

في تلك الليلة رأت رنزنب فيما يرى النائم كأنها مع خاي

في زورق الأموات في العالَم الآخَر، وكان خاي واقفاً في مقدمة الزورق وهي لا ترى إلا مؤخرة رأسه، وعندما اقتربا من مطلع الشمس أدار رأسه، فرأت أنه ليس خاي لكنه كان كامني، وفي الوقت نفسه بدأت مقدمة السفينة (وهي على هيئة رأس أفعى) تضطرب، ثم إذا بها أفعى من نوع الكوبرا، فقالت تحدث نفسها: هذه هي الأفعى التي تخرج من المقابر لتلتهم أرواح الموتى.

واستولى عليها الخوف حتى شُلّت حركتها، ثم لاحظت أن وجه الأفعى هو وجه نوفريت، فاستيقظت من نومها تصيح قائلة: نوفريت! نوفريت!

ولما رأت أن ذلك كله كان حلماً بقيَت ساكنة في فراشها، ولكن قلبها كان يدقّ دقّاً عنيفاً، فحاولَت أن تُقنع نفسها بأن ذلك الحلم لا صله له بالحقيقة، ثم تذكرت فجأة أن سوبك وهو يقتل الأفعى كان ينطق اسم نوفريت.

* * *

الفصل الخامس

لم تعُد رنزنب تستطيع النوم بعد تلك الرؤية إلا لماماً، وحينما اقترب الفجر وهي تتقلب مسهَّدة في فراشها تولاّها شعور الخوف من شر محدّق، فنهضت وارتدت ثيابها ثم خرجت من المنزل مبكرة، فقادتها خُطاها إلى شاطئ النيل كما اعتادت في الأيام الأخيرة، وهناك شعرت رنزنب بشعور غريب لا تدري كنهه، وشعرت بحاجتها إلى شيء تجهله.

ثم رأت على الشاطئ شخصاً واقفاً لا يتحرك، لكنه يرقب الزورق المتجه إلى طيبة في اهتمام ملحوظ، وما لبثت أن علمت أن هذا الشخص ليس سوى نوفريت، فسارت رنزنب حتى بلغت مكانها فوقفت إلى جانبها، فالتفتت نوفريت إليها برهة ثم عادت تنظر إلى النيل ووجهها جامد لا يعبّر عن أية عاطفة، فقالت لها رنزنب بخجل ظاهر: يوجد سفن كثيرة في النهر.

فلم تزد نوفريت على أن قالت: أجل.

ثم عادت إلى ما كانت عليه من النظر إلى النيل فسألتها رنزنب: هل النيل هكذا في منطقتكم بالشمال؟

فضحكت نوفريت ضحكة قصيرة ثم أجابت قائلة: لا؛ فأبي

تاجر في ممفيس، وهي مدينة مرحة فيها الموسيقى والغناء، ولكن أبي كثير الأسفار، وقد سافرتُ معه إلى سوريا وبابلونيا فركبتُ معه السفن الكبيرة في عرض البحار.

- لا بدّ أن الحياة هنا مضجرة لكِ.

ثم تذكّرت رنزنب ما قالته لحوري بالأمس عن نوفريت حيث قالت إنها جميلة قاسية شريرة، فأدركَت في تلك اللحظة معنى قوله على إثر ذلك: "أنت طفلة يا رنزنب"؛ فلا بد أنه كان يعني أن ما قالته عن نوفريت ليس سوى هراء لأن الحكم على الناس لا يكون بهذه السهولة. نظرت إليها وقالت لها بخجل كخجل الأطفال: أنت تكرهيننا جميعاً، وأنا أعرف السبب، نحن لم نُبدِ نحوك شيئاً من العطف، ولكن الوقت لم ينتهِ بعد، ولعله من الممكن أن نكون أنا وأنت بمثابة أختَين. أنت بعيدة عن كل من تعرفينهم ووحيدة هنا، أفلا يمكنني أن أساعدك؟

- اذهبي عنّي بعيداً، أنا لا أريد شيئاً من أيّ أحد منكم؛ فأنتم حمقى أغبياء، هكذا أنتم جميعاً بلا استثناء.

ثم انثنت راجعة نحو الدار، وعندما عبرت بوابة الدار وأخذت تعبر صحنها اندفعت طفلة من أطفال كيت تجري وراء كرة، فدفعتها نوفريت دفعة قوية بعيداً عن طريقها فأخذت الطفلة تبكي وتصرخ، وعندئذ جرت رنزنب نحوها ثم قالت لنوفريت بغضب: لا يليق بك أن تفعلي ذلك يا نوفريت! انظري، لقد جرحت الطفلة في ذقنها.

- هل يجب عليّ أن أكون حذرة كي لا أؤذي هؤلاء الأطفال المفسدين؟ لماذا؟ هل تراعي أمهاتهم إحساسي؟

جاءت كيت من داخل الدار مهرولة عندما سمعت صراخ ابنتها، فجرت إليها وجعلت تفحص الجرح الذي بذقنها، ثم نظرت إلى نوفريت وصاحت بها قائلة: أنتِ أيتها الشيطانة، أيتها الأفعى، أيتها الشريرة، انتظري فسترين ما نفعله بك.

ثم رفعت كفها ولطمتها على وجهها بكل قوتها، فأسرعت رنزنب وأمسكت بذراعها حتى لا تكرر اللطمة قائلة لها: لا يصحّ أن تفعلي ذلك يا كيت.

- من ذا الذي يمنعني؟ هذه واحدة من كثير.

فوقفت نوفريت صامتة وأثر اللطمة ظاهر على خدها أحمر قانياً، وقد كان بمعصم كيت سوار جرح الجلد فسال الدم على وجه نوفريت، ولكن التعبير الذي بدا على وجه نوفريت هو الذي حيّر رنزنب، بل أخافها؛ فهي لم تُبدِ أيّ كدر، بل على العكس كان لعينيها بريق الانتصار، ثم افترّ ثغرها عن ابتسامة ماكرة وقالت لكيت: أشكرك يا كيت.

ثم دخلت الدار.

* * *

جاءت حنة ملبية نداء نوفريت، وما إن رأت الجرح الذي بوجهها حتى أخذت تُبدي عجبها، ولكن نوفريت قاطعتها قائلة: استدعي لي كامني واطلبي منه أن يحضر أقلاماً وحبراً وورقاً من البردي؛ فسأملي عليه خطاباً إلى السيد.

وكانت حنة لا تحيد ببصرها عن الجرح الذي بخد نوفريت قائلة: إلى السيد؟! أجل، لقد فهمت.

ثم سألَتها: مَن الذي فعل هذا؟

فابتسمت نوفريت وقالت بهدوء: كيت.

- هذا شيء فظيع جداً! أجل، يجب أن يعلم السيد، لا بدّ من إخبار أمحوتب.

- أنت تفكّرين كما أفكر يا حنة؛ فأنا أيضاً أرى أنه من الواجب أن نخبره.

ثم أخرجت من ثوبها حلية من الذهب المرصَّع فوضعتها في يد حنة قائلة لها: أنا وأنتِ نرعى صالح أمحوتب بإخلاص.

- هذا كثير يا سيدتي، أنت كثيرة السخاء. ما أبدع هذه الحلية!

فابتسمت قائلة لها: استدعي كامني وأقبلي معه؛ فأنتما الاثنان سوف تشهدان على ما حدث.

وبعد لحظة جاء كامني متردّد الخطى متجعّد الجبين فقالت له نوفريت بلهجة الأمر: أتذكر تعليمات أمحوتب قبل سفره؟

- نعم.

- لقد حان وقت تنفيذها، فاجلس واكتب ما أقوله لك.

ولما بدا عليه التردد قالت له بلهجة حازمة: ما ستكتبه هو ما رأيتَه بعينيك وسمعتَه بأذنيك، وحنة ستؤيّد ما أقوله، ويجب أن يُحاط خبر إرسال الخطاب بالكتمان وأن يُرسَل في أسرع وقت.

- أنا لا أحب أن...

فقاطعته قائلة: ليست لدي أي شكوى من رنزنب؛ فهي فتاة رقيقة ضعيفة حمقاء ولم تسئ إليّ. هل هذا يرضيك؟

فاحمرّ وجهه البرونزي وقال: لقد كنتُ أفكر...

لكنها قطعت كلامه مرة أخرى قائلة باللهجة الحازمة نفسها: هيا، نفّذ التعليمات واكتب ما أمليه عليك.

فبقي هنيهة ينظر إليها غاضباً، ثم ما لبث أن أحنى رأسه وقال: سأكتب ما تشائين، ولكنني أعتقد... أجل أعتقد أنكِ ستندمين.

- أتتوعدني يا كامني؟

- لا، ولكنني أحذرك.

* * *

مرّت الأيام تباعاً ورنزنب تشعر كأنها تعيش في حلم، ولم تعد تتقرب إلى نوفريت، بل صارت تخشاها وترى فيها أشياء لا تفهمها. وكانت نوفريت بعد ذلك الحادث الذي لطمتها فيه كيت قد تغيرت كثيراً، فقد بان عليها رضا وسرور لم تدرك رنزنب كنههما، ورأت أن الذي كانت تعتقد أنه من بؤسها وشقائها كان وهماً من الأوهام، فهي تبدو راضية عن نفسها وحياتها، وفي الوقت نفسه لم تعد تُعنى بأن تُلقي بذور الشقاق بين أفراد الأسرة كما كان شأنها عقب سفر أمحوتب، مما أدى إلى اتحاد أفراد الأسرة ضدها.

وفي الوقت ذاته وقعت عدة حوادث قليلة غير مألوفة، فقد أُحرق ثوب كتّانيّ لنوفريت بمكواة حامية، وصُبّت مادة ملوِّنة على ثوب آخَر، ووجدَت عقرباً ذات ليلة في فراشها، وصار الطعام الذي يقدَّم إليها إما زائد الملح أو ليس به ملح أصلاً، ووُضع فأر

ميت يوماً في الخبز الذي تأكله.

كان هناك اضطهاد لنوفريت لا هوادة فيه، ولكنه لم يكن ظاهراً مكشوفاً، فقد كانت نسوة الدار يَقُمنَ به خفية، وقد كنّ حريصات على ألاّ تظهر تبعته.

وأخيراً دعَت إيزا ساتيبي وكيت ورنزنب يوماً، وقد سبقتهن إليها حنة فأخذت تهزّ رأسها وتمسح يدَيها، ثم قالت لهنّ إيزا بسخريتها المعهودة: ماذا تفعلن يا حفيداتي الماهرات؟ ما هذا الذي أسمعه عن حرق ثوب نوفريت وإفساد طعامها؟

فابتسمت ساتيبي وكيت، ثم قالت الأولى: هل شكَت نوفريت إليك؟

- لا، نوفريت لم تشك إليّ، وهذا ما يقلقني.

- ولكنه لا يقلقني أنا.

- هذا لأنكِ حمقاء. نوفريت لها ذكاء اثنتين منكنّ على الأقل.

- سوف نرى.

ولمّا سألَتها إيزا عمّا تقصده أجابت قائلة: أنت امرأة عجوز يا إيزا، وأنا لا أقول هذا لأن احترامي لك قد نقص ولكن لأن الأمور صارت لا تهمّك بالقدر الذي تهمّنا به نحن اللائي لنا أزواج وأطفال. لقد قررنا أن نتولى المسألة بأنفسنا مع تلك المرأة التي لا نحبها ولا نقبلها بيننا.

- هذه كلمات بديعة، ولكن الفتيات الرقيقات في المطحن

يمكنهنّ أن يحسِنّ الكلام مثلكِ أيضاً.

- صدقت؛ فأنت تتكلمين بعقل وحكمة يا إيزا.

- تعالي يا حنة، ماذا تقول نوفريت حيال كل ذلك؟ لا بدّ أنك تعرفين فأنت معها دائماً.

- أنا ألازمها طبقاً لأمر أمحوتب، وأنا أكره ذلك طبعاً ولكن ينبغي لي أن أفعل ما أمرني به السيد، ولعلك لا تظنين...

فقاطعتها إيزا قائلة: نحن نعرفك حق المعرفة يا حنة، أنت دائماً مخلصة لنا ولا تلقين جزاء هذا الإخلاص، ولكن ماذا تقول نوفريت إزاء كل ما حدث؟ هذا ما أسألك عنه.

- إنها لا تقول شيئاً، فقط تبتسم.

وهنا قالت إيزا بحزم: أنتن حمقاوات جميعاً؛ فنوفريت هي صاحبة القوة لا أنتن؛ وكل ما تفعلنه إنما يؤدي بكنّ إلى الوقوع في قبضة يدها، وأنا أقسم أن ما تفعلنه معها يسرّها بدلاً أن يغضبها.

فصاحت ساتيبي قائلة: هذا هراء؛ فنوفريت واحدة بين جماعة، فأيّ قوة لها؟

فقالت إيزا: لها قوة شابة صغيرة حسناء اقترنت برجل شيخ. أنا أعي ما أقوله وحنة تعي أيضاً.

فقالت حنة: السيد شغوف بها، ولا بد...

فنظرت إيزا إليها وردّت: اذهبي إلى المطبخ فأحضري لي بلحاً وقليلاً من عسل النحل أيضاً.

وعندما ذهبت حنة قالت إيزا: هناك شر يتخمّر وأنا أشمّ

رائحته، وأنت يا ساتيبي زعيمة هذه الحركة، فاحذري كل الحذر. أنت تحسبين نفسك ماهرة، فاحذري أن تقعي في قبضة نوفريت.

ثم استندت إلى الوراء وأغمضت عينيها وقالت: لقد حذرتكن كما يقضي بذلك واجبي، ويمكنكنّ أن تنصرفن الآن.

وعندما خرجت ساتيبي متجهة نحو شاطئ البحيرة قالت لرفيقتها: كيف نكون في قبضة نوفريت؟ إيزا بدأت تهذي من أثر الكبَر؛ فنحن اللائي نقبض على نوفريت بأيدينا ولن نفعل معها شيئاً يمكن أن يُؤخَذ علينا، وأعتقد أنها سوف تندم على مجيئها إلى هذه الدار.

فصاحت بها رنزنب: ما أقساك يا ساتيبي!

نظرت ساتيبي إليها وقالت: أتدّعين أنك تحبينها يا رنزنب؟

- لا، أنا لا أحبها، ولكنني أراك محبة للانتقام.

- أنا أفكّر في أطفالي وفي يحموز، كما أنني لستُ امرأة وديعة أو امرأة تتحمل الإهانة، ثم إنني امرأة طموحة ومستعدة لأن أضرب عنق تلك المرأة بسرور بالغ، لكن الأمر ليس بهذه السهولة للأسف؛ فلا ينبغي لنا أن نثير غضب أمحوتب، ولكنني أعتقد أنه يمكن تدبير شيء.

* * *

جلس يحموز وسوبك وإيبي ينظرون إلى حوري وهو يقرأ عليهم الخطاب الوارد من أبيهم وكأن على رؤوسهم الطير. كان أمحوتب يقول في خطابه: ألم أُقُل ليحموز إنني أحمّله تبعة كل أذى يصيب زوجتي؟ أنتم ما دمتم على قيد الحياة فأنا عدوكم

وأنتم أعدائي، ولن أعيش معكم تحت سقف منزل واحد ما دمتم لم تحترموا نوفريت. أنت لم تعُد ابني من لحمي ودمي يا يحموز، وكذلك أنت يا سوبك وأنت إيبي لم تعودا ابنيّ أيضاً؛ فكل واحد منكم قد آذى زوجتي، وهذا ما شهد به كامني وحنة. سأطردكم جميعاً من منزلي. لقد علتُكم حتى الآن ولكنني لن أعولكم بعد اليوم.

وصمت حوري لحظة ثم واصل قراءة الخطاب: هذا أمحوتب كاهن كا يوجه الحديث إلى حوري. أنت الذي كنتَ دائماً مخلصاً أميناً، كيف أنت في حياتك وفي طمأنينتك وصحتك؟ بلّغ تحياتي إلى أمي إيزا، وانتبه إلى أعمالي جيداً حتى أعود. وأريدك أن تُعِدّ لي وثيقة تجعل بها نوفريت شريكتي في جميع أملاكي بصفتها زوجتي، ولن أشرك معي في أملاكي يحموز ولا سوبك وكذلك لن أعولهما، وأنا أعلن براءتي منهما ما داما قد آذيا زوجتي. احتفظ بكل شيء حتى أعود يا حوري. ما أفظع أن تؤذي أسرةُ الرجل زوجته في غيابه! أما إيبي فحذّره لأنه إذا أساء إلى نوفريت أية إساءة فسوف أطرده من البيت أيضاً.

ثم ساد صمت رهيب فقال سوبك والشرر يتطاير من عينيه: كيف حدث ذلك؟! ما الذي وصل إلى علم أبي؟ ومَن الذي بعث إليه بتلك الأخبار الكاذبة؟ لن يستطيع أبي أن يحرمنا حقنا في الميراث ويمنح زوجته كل أملاكه هكذا.

فقال يحموز: سوف يثير ذلك كلام الناس ولن يروا فيه عدلاً وإنصافاً، ولكنه أمر في إمكان أمحوتب من الناحية القانونية.

فقال سوبك: لقد سحرَته تلك الأفعى الرقطاء نوفريت.

وتمتم يحموز بذهول قائلاً: هذا أمر لا يصدَّق، ولا يمكن أن يكون صحيحاً!

وصاح إيبي قائلاً: لا شكّ أن أبانا قد جُنّ، فقد انقلب عليّ أنا أيضاً من أجل تلك المرأة!

فقال لهم حوري بتؤدة: سيعود أمحوتب قريباً، فقد قال ذلك في خطابه، وعندئذ تكون سورة غضبه قد هدأت، فلعله لا يعني ما كتبه تماماً.

وعندئذ سُمعت ضحكة ساخرة، فنظر الشبان الأربعة فرأوا ساتيبي تنظر إليهم، وقد كانت واقفة تستمع إليهم عند الباب الموصّل إلى جناح النساء، ثم قالت لهم ساخرة: إذن فهذا ما يجب علينا أن نفعله يا حوري البارع... ننتظر لنرى، أليس كذلك؟

فقال لها يحموز: وماذا يمكننا غير ذلك؟

فصاحت ساتيبي قائلة: ألا يمكننا غير الانتظار؟ أيجري في عروقكم جميعاً ماء بدلاً من الدم؟ أنا أعرف يحموز وهو ليس برجل، ولكن أنت يا سوبك... أليس لديك علاج لهذا الشر المستطير؟ أليس غرس سكين في قلب الأفعى ينجّينا من كل سوء تنزله بنا؟

فقال يحموز: لن يغفر أبي لنا ذلك أبداً.

- أنت الذي تقول هذا. ولكن ثق بأن زوجة ميتة ليست كزوجة حية، ومتى ماتت فسيعود قلب أمحوتب مِلكاً لأبنائه وأحفاده. ثم هو لن يعرف كيف ماتت، فيمكننا أن نزعم أن عقرباً لدغتها، وسنكون كلنا يداً واحدة في هذه المسألة، ألسنا كذلك؟

فردّ يحموز قائلاً: سيعلم أبي الحقيقة، ولن تتوانى حنة عن إخباره بها.

فضحكت ساتيبي ضحكة هستيرية قائلة: يا لك من رجل بعيد النظر متريّث يا يحموز... يا لك من رجل حذر! أنت الذي ينبغي لك أن تتولى تربية الأطفال وتؤدي عمل النساء في مؤخرة البيت. لقد تزوجتُ رجلاً ليس برجل! أما أنت يا سوبك فأين تفاخرك بالشجاعة والعزيمة؟ أنا أقسم أنني أكثر رجولة منكما كليكما.

ثم خرجت غاضبة لا تلوي على شيء، وكانت كيت واقفة خلفها فتقدمَت وقالت: ما تقوله ساتيبي هو عين الصواب، فهي أكثر رجولة من أيّ واحد منكم، منك يا يحموز وسوبك وإيبي. هل ستجلسون هنا ولا تفعلون شيئاً؟ ماذا سيكون مصير أطفالنا يا سوبك؟ سوف يُطرَدون من البيت ليموتوا جوعاً. حسناً، إذا كنتم لن تفعلوا شيئاً فسأفعل أنا، مادام ليس فيكم رجل.

وعندما ذهبت هي الأخرى وقف سوبك وقال: أقسم أن كيت على صواب. هناك عمل لا يقوم به إلا رجل، ونحن نجلس ها هنا ونهزّ رؤوسنا أسفاً ولا نفعل شيئاً!

ثم مضى خارجاً فناداه حوري قائلاً: سوبك، سوبك، إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا أنت فاعل؟

فصاح سوبك قائلاً: من الواضح أنني سأفعل شيئاً ما، والذي سأفعله سيبعث في نفسي سروراً.

* * *

خرجت رنزنب إلى الشرفة فوقفت لحظة تحجب عينيها عن

أشعة الشمس، وكانت تشعر بخوف لا تدري كنهه وتقول لنفسها: يجب أن أحذّر نوفريت، أجل، من الضروري أن أحذّرها.

وكانت تسمع خلفها من داخل البيت أصوات رجال، فقد كان حوري ويحموز يتكلمان معاً هناك، في حين ارتفع صوت إيبي قائلاً: ساتيبي وكيت على حق، فليس في هذه الأسرة رجال. ولكنني رجل، فأنا أشعر بالرجولة في قلبي وإن لم تكن في سنّي. لقد سخِرَت نوفريت منّي وضحكت عليّ وعاملتني كطفل، لكنني سأريها أنني لست طفلاً ولا أخشى غضب أبي؛ فأنا أعرف أنه مسحور. لقد سحرته هذه المرأة، وإذا ماتت فسوف يتجه بمحبته إليّ كما كان من قبل؛ فأنا أحَبّ أولاده إليه. أنتم جميعاً تعاملونني وكأنني طفل، ولكن سترون. أجل، سترون.

ثم اندفع خارجاً من المنزل فاصطدم برنزنب حتى كاد يطرحها أرضاً، فأمسكت بكمّه قائلة: إلى أين يا إيبي؟

- سأبحث عن نوفريت، ولنرَ إن كانت تستطيع أن تهزأ بي.

- انتظر قليلاً، يجب أن تهدأ، فلا ينبغي لأحد منّا أن يُقدِم على عمل طائش.

فضحك الفتى وقال بازدراء: طائش؟ أنت مثل يحموز متبصّرة حذرة دائماً، وتعتقدان أنه لا يصحّ الإسراع في أي شيء. يحموز ليس إلا امرأة عجوزاً، وسوبك كالطبل الأجوف لا يملك إلا كلاماً وتفاخراً... دعيني أخرج يا رنزنب. ثم جذب يده من يد أخته ومضى يصيح قائلاً: أين نوفريت؟ أين هي؟

* * *

كانت حنة قد خرجت من داخل المنزل فتمتمت قائلة: هذا شر! إلى أي شيء سيصير أمرنا جميعاً؟

فسألها إيبي: أين نوفريت يا حنة؟

وهنا تدخّلَت رنزنب قائلة لها: حذار أن تخبريه بمكانها يا حنة.

ولكن حنة كانت قد بدأت تجيب قائلة: لقد خرجَت إلى الطريق الخلفي قاصدة حقول الكتّان.

فاندفع إيبي إلى داخل المنزل في حين قالت رنزنب لحنة مؤنّبة: ما كان ينبغي أن تخبريه بمكانها.

- ألا تثقين بحنة العجوز؟ أليست لديك أية ثقة بي؟ إن حنة العجوز المسكينة تعرف ماذا تفعل. الفتى يحتاج إلى فترة من الوقت لتهدأ سورة غضبه، وهو لن يجد نوفريت في حقول الكتّان فنوفريت هنا في الإيوان مع كامني.

ثم أشارت برأسها إلى طرف فناء الدار وكررت كلمتها الأخيرة قائلة بخبث: مع كامني.

فمضت رنزنب في طريقها إلى حيث كانت نوفريت واقفة مع كامني وقالت لها لاهثة: نوفريت، لقد جئت لأحذرك، فيجب أن تأخذي حذرك.

فنظرت إليها نوفريت نظرة تدلّ على عدم الاكتراث ثم قالت: إذن فالكلاب تنبح.

- إنهم في غضب شديد وسيُنزِلون بك الأذى.

فهزّت نوفريت رأسها وقالت: لا يستطيع أحد أن يؤذيني، وإذا فعلوا فسيعلم أبوك وينتقم منهم، وهم يعرفون ذلك حق المعرفة.

ثم ضحكت قائلة: ما كان أحمقهم بإهاناتهم الصغيرة واضطهادهم السخيف! لقد كانوا يلعبون اللعبة التي رتّبتُها أنا لهم.

فقالت رنزنب بدهشة: إذن فأنت التي دبّرت كل ذلك، في حين كنتُ أنا أرثي لكِ وأحسب أننا قُساة القلوب! أنا لست آسفة الآن، بل أعتقد أنك شريرة يا نوفريت، فحين تأتين لتُنكِري الذنوب في ساعة الحساب لن تستطيعي أن تقولي إنك لم تفعلي ذلك، ولن تستطيعي أيضاً أن تقولي إنك لم تكوني ذات طمع، وعندئذ يرسب قلبك في الميزان حيال ريشة الصدق.

فقالت نوفريت عابسة: لقد تولّتك التقوى فجأة! ولكنني لم أؤذك أنتِ يا رنزنب؛ فأنا لم أقُل شيئاً ضدّك. سلي كامني عن ذلك.

ثم تركتها ومشت نحو الشرق فخرجت حنة لتقابلها ثم دخلتا معاً إلى جناح النساء في الدار، وعندئذ التفتت رنزنب إلى كامني قائلة: إذن فأنت الذي ساعدتها على أن تفعل ذلك بنا يا كامني، أليس كذلك؟

فقال لها كامني باهتمام: هل أنت متكدرة منّي يا رنزنب؟ ولكن ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ لقد كلّفني أبوك قبل أن يسافر أن أكتب إليه ما تمليه نوفريت عليّ في أي وقت تشاء. قولي إنك لا تلومينني يا رنزنب، فماذا كان يمكنني عمله؟

- أنا لا ألومك، فقد كان عليك أن تنفّذ أوامر أبي.

- لكنني لم أكن مرتاحاً لما فعلتُ، وثقي يا سيدتي أنه لم يكن في الخطاب الذي كتبتُه أية كلمة ضدك.

- هذا لا يهمّني.

- لكنه يهمّني أنا، فلو أن نوفريت أرادت إملاء شيء ضدك لما كتبتُه، صدّقيني يا رنزنب. ثم تابع كامني ملحّاً: أنا لم أكتب إلا الحق، ولم يتضمن الخطاب أكاذيب مطلقاً وأقسم لك.

- أنا واثقة من أن الخطاب لم يحتوِ على أكاذيب؛ فنوفريت أمكر من أن تكذب. إذن فقد كانت إيزا العجوز على صواب؛ فالاضطهاد الذي لقيَته نوفريت من ساتيبي وكيت هو الهدف الذي كانت تسعى إليه، فلا عجب أن كانت تقابل ذلك الاضطهاد بابتسامتها الماكرة. يا لها من شريرة!

- أجل، إنها تحب الشر.

فالتفتت إليه وسألته باهتمام: هل كنتَ تعرفها قبل أن تأتي إلينا؟ ألم تعرفها في ممفيس؟

فاحمرّ وجهه وبدا عليه الارتباك ثم قال: لم أكن أعرفها معرفة وثيقة، ولكن كنتُ أسمع عنها، فقد كان الناس يقولون إنها فتاة متكبرة طموحة قاسية لا تغفر أبداً.

- أنا لا أصدق ما جاء بخطاب أبي... لا يمكن أن ينفّذ أبي وعيده، أجل، فقد كان في سورة الغضب، ولكنه لا يستطيع أن يكون ظالماً إلى هذا الحد! لا شكّ في أنه سيصفح حين يعود.

- حين يعود ستأخذ نوفريت على عاتقها ألاّ يغير رأيه؛ فهي شديدة الدهاء قوية العزيمة.

ثم استطرد قائلاً: لا تنسي أنها جميلة.

- أجل، إنها جميلة جداً.

ثم نهضت وقد شعرت بضيق لا تعرف سببه لدى سماعها كامني يذكر جمال نوفريت.

* * *

قضت رنزنب أصيل اليوم في ملاعبة الأطفال، وقد خفف ذلك من الألم النفسي الذي كانت تشعر به، ثم نهضت من مكانها قُبَيل الغروب فأخذت تسوي شعرها وترتّب ثيابها وهي في دهشة من أمر ساتيبي وكيت لأنهما لم تخرجا من الدار كعادتهما حتى ذلك الوقت، فشعرَت رنزنب بفراغ كبير وأخذت تسأل نفسها: أين ذهب الجميع؟

ربما كان حوري قد خرج إلى المقبرة أو إلى الحقول، وربما كان يحموز معه، ولعل سوبك وإيبي عند الماشية أو في مخازن القمح، ولكن أين ساتيبي وكيت؟ وأين نوفريت؟ كان العطر الذي تستعمله نوفريت يملأ أريجه غرفتها، وكانت العطور والأدهنة والثياب وأدوات الزينة تتحدث كلها عن صاحبتها نوفريت، ولكن أين هي؟! ثم مضت رنزنب إلى المدخل الخلفي للدار فقابلت حنة قادمة فسألتها: أين خرج الجميع يا حنة؟ هل يوجد في الدار غير جدتي؟

- كيف لي أن أعرف يا سيدتي؟ لقد كنتُ أعمل، فقد كنت

أساعد في النسج وأقوم بألف عمل، وليس عندي متسع من الوقت للنزهة والرياضة.

فأدركت رنزنب من حديثها أن أحداً قد خرج للرياضة، فربما تبعت ساتيبي يحموز إلى المقبرة لتزيده لوماً وتقريعاً، ولكن أين كيت؟ إنها لم تعتد الابتعاد عن الأطفال مدة طويلة! وعاد خوفها الدفين يلحّ عليها في السؤال: أين نوفريت؟

وكأنما قرأت حنة ما يدور بخلدها فقالت لها: أما نوفريت فقد ذهبَت منذ مدة طويلة إلى المقبرة. لا بأس، إن حوري نِدّ لها؛ فهو ذكي مثلها.

ثم اقتربت من رنزنب وقالت لها: بودّي أن تعلمي مقدار أسفي لكل ما حدث. لقد جاءت نوفريت إليّ في ذلك اليوم والدم يجري على خدّها من أثر لطمة كيت لها، ثم أمرَت كامني أن يكتب خطاباً للسيد وأرغمتني على أن أشهد بأنني رأيت الأمر بعيني، وبالطبع لم أستطع أن أقول لها إنني لم أرَ شيئاً، آه، كم هي ماكرة! وأنا طوال الوقت أفكر في أمك العزيزة.

فتركتها رنزنب وسارت تحت أشعة الشمس الذهبية، وكانت تتراءى لها ظلال عميقة على الصخور والعالَم كله يبدو عجيباً في تلك الساعة قبيل الغروب.

* * *

أسرعت رنزنب في خُطاها حين أخذت طريقها إلى الدرب الصخري الصاعد إلى المقبرة وقد اعتزمت أن تذهب إليها لتلتقي بحوري هناك، فقد اعتادت في طفولتها أن تذهب إليه كلما

انكسرت دميتها أو كلما شعرت بالحيرة أو الخوف، فحوري ثابت مثل الصخر لا يتحرك ولا يتغيّر. ثم زادت خطاها سرعة حتى كأنها تجري، وفجأة رأت ساتيبي قادمة إليها وهي تترنح وتميل من جانب الطريق إلى آخَر، ثم تتعثّر كأنها لا ترى.

وعندما رأتها ساتيبي أمامها وقفت وضربت صدرها دهشة، فوقفت رنزنب حتى إذا اقتربت منها ساتيبي ورأت وجهها قالت لها: ماذا بك يا ساتيبي؟ هل أنتِ مريضة؟

فأجابتها بصوت أجش وعينين زائغتين: لا، لا.

- ولكنك تبدين مريضة، بل يبدو عليك الخوف! ماذا حدث؟

- لاشيء، لا شيء.

- أين كنتِ إذن؟

- ذهبتُ إلى المقبرة لأقابل يحموز، ولكنه لم يكن هناك، أجل، لم يكن أحدٌ هناك.

فظلت رنزنب تمعن النظر إليها وقد خُيّل إليها أنها ليست ساتيبي التي تعرفها، بل أصبحت امرأة أخرى! لقد فقدت كل ما كان لديها من عزيمة واعتداد بالنفس، وما لبثَت ساتيبي أن قالت لها: تعالي يا رنزنب، تعالي إلى المنزل.

ثم وضعت يدها المرتعشة على كتف رنزنب وراحت تحثها على العودة إلى المنزل، فشعرت رنزنب برجفة من لمستها فقالت لها: لا، أنا ذاهبة إلى المقبرة.

- المقبرة ليس فيها أحد كما ذكرتُ لك.

- ولكنني أحب أن أنظر إلى النهر وأن أجلس هناك.

- لقد تأخّر بك الوقت وأوشك المساء أن يحلّ.

ثم أمسكت ذراع رنزنب بقوة لتحول دون ذهابها، ولكن رنزنب جذبت ذراعها قائلة: دعيني أذهب.

- لا، بل لا بدّ أن ترجعي معي إلى المنزل.

ولكن رنزنب كانت قد حررت نفسها من قبضتها وبدأت تسلك طريقها صوب المقبرة، وقد دلّتها غريزتها على أن هناك شيئاً ما، فأسرعت في مشيتها حتى صارت كأنها تعدو، ثم رأت كومة معتمة في ظل صخرة فأسرعت حتى وصلت إليها، ولم يدهشها أن رأت نوفريت راقدة هناك وقد خمدت حركتها وصارت جثة بلا روح، فكأنها توقعت ذلك من قبل، ثم انحنت ولمست خد نوفريت فإذا هو بارد يابس.

أخذت تنظر إليها ولم تشعر بوصول ساتيبي إلاّ عندما سمعتها تهتف من خلفها قائلة: لا بدّ أنها سقطت؛ فقد كانت تسلك الدرب الصخري.

ففكرت رنزنب ثم قالت لنفسها: أجل، هذا ما حدث، لا شكّ أنها سقطت من الدرب المرتفع فارتطم جسمها بالصخور من سقطتها.

ثم قالت ساتيبي: ربما تكون قد رأت أفعى فارتاعت؛ فيوجد في ذلك الدرب أفاعٍ تنام في شعاع الشمس أحياناً.

ولم تُجِب رنزنب، ثم مضت تحدث نفسها قائلة: أجل، أفعى. سوبك والأفعى... أفعى مقصومة الظهر راقدة في وهج الشمس.

ثم شعرت بالطمأنينة حين سمعت صوت حوري يقول: ماذا حدث؟

التفتَت إليه مطمئنّة فرأت أنه قد جاء مع يحموز، وكانت ساتيبي تشرح باهتمام كيف أن نوفريت لا بدّ أن تكون قد سقطت من الدرب الذي بأعلى، فقال يحموز: لا بدّ أنها قد ذهبت إلى المقبرة لتلتقي بنا، ولكن كنت قد ذهبتُ أنا وحوري لنرى قنوات الري، ثم مكثنا هناك نحو ساعة، وعندما عدنا وجدناكما واقفتين هنا.

فقالت رنزنب بصوت أدهشها هي نفسها: أين سوبك؟

فشعرت دون أن ترى أن حوري قد أدار وجهه عند هذا السؤال، أما يحموز فأجاب بحيرة ظاهرة: سوبك؟ أنا لم أرَه بعد ظهر اليوم منذ غادر المنزل غاضباً.

كان حوري ينظر إلى رنزنب، فلما نظرت إليه تفادى بصرها ونظر إلى جثة نوفريت، فأدركَت ما يجول في خاطره ثم سمعَته يتمتم: سوبك.

فسمعت نفسها تقول: لا، لا.

وعادت ساتيبي تؤكد قولها فقالت: لقد سقطت نوفريت من الدرب؛ فالدرب ضيق جداً في ذلك المكان، وخطر جداً أيضاً.

فسألت رنزنب نفسها: خطر؟ ألم يقل لي يحموز يوماً إن

سوبك هاجمه حين كانا طفلين فجاءت أمهما فقالت لسوبك: "لا ينبغي أن تفعل ذلك يا سوبك؛ فهو خطير". سوبك يميل إلى القتل، وقد قال: "ما سأفعله سيملأ قلبي سروراً". لقد قتل سوبك أفعى، ثم تخيلَته رنزنب قد صادف نوفريت في الدرب الضيق، ثم سمعَت نفسها تتمتم قائلة: نحن لا ندري، نحن لا ندري.

وما لبثَت أن ارتاحت وشعرت كأن عبئاً ثقيلاً قد أُزيح من فوق صدرها لأنها سمعت حوري يؤكّد بصوته الرزين ما قالته ساتيبي ويقول مثلها: لا بدّ أنها قد سقطت من الدرب.

والتقت أعينهما فقالت لنفسها: أنا وهو نعلم الحقيقة.

ثم سمعت نفسها قائلة: لا بدّ أنها سقطت من الدرب.

ثم قال يحموز بصوته الرقيق وكأنه رجع الصدى: لا بدّ أنها سقطت من الدرب.

* * *

الفصل السادس

جلس أمحوتب يحدث إيزا قائلاً: الجميع يخبرون بما حدث كأنهم شخص واحد.

فقالت إيزا: هذا على الأقل شيء مريح.

فبدت الدهشة على وجهه وقال: مريح! ماذا تقصدين؟ هل هم صادقون فيما قالوا؟ أريد أن أتأكد من ذلك.

وأطرق هنيهة مفكراً ثم قال: أخشى أن يكون لقراري الذي اتخذتُه بمعاقبة أسرتي الناكرة للجميل صلة بوفاة نوفريت.

- لا بدّ أنّ تهديدك لهم في الخطاب قد أثارهم جميعاً، فقد كانت أصواتهم وهم يتصايحون في غرفة الاستقبال تصل واضحة إلى سمعي في غرفتي، لكن هل كنتَ تعتزم طردهم حقاً؟

فتململ أمحوتب في مقعده وقال: لقد كتبت الخطاب وأنا في سورة الغضب، وكانت أسرتي تحتاج إلى درس فكان لا بدّ أن ألقّنها إياه.

- لعلك لم تكن تقصد أكثر من أن تلقّنهم ذلك الدرس، أليس كذلك؟

فزفر أمحوتب زفرة حرّى ثم قال: يا أمي العزيزة، ما فائدة ذلك الآن؟

- إذن لم تكن تعني ما ذكرتَ في الخطاب، ولم يكن هذا إلا مظهراً لتعجّلك وطيشك كالمعتاد؟

فكظم أمحوتب غيظه بصعوبة ثم قال: المجال لا يتسع لبحث هذه التفصيلات، ولا يعنيني الآن إلا بحث مسألة وفاة نوفريت، فإذا اتضح لي أن أحداً من أفراد أسرتي بلغ به الجحود والقسوة الحد الذي يجعله يقتل فتاة فسوف...

فقاطعَته إيزا قائلة: إذن من حسن الحظ أنهم قد اتفقت أقوالهم جميعاً على أن وفاتها كانت طبيعية، والآن عليك أن تعتبر الحادث منتهياً. لقد كان يحسن بك أن تعمل بمشورتي فتأخذ الفتاة معك في سفرك إلى الشمال.

فازداد تقطيب وجهه وقال: هل معنى ذلك أنك تعتقدين...

فقاطعته قائلة بلهجة التأكيد: أنا أعتقد صحّة ما يُقال لي، إلا إذا تعارض مع ما رأيتُه بعينَيّ أو سمعته بأذنَيّ، ولا بدّ أنك سألتَ حنة في القضية، فماذا كان جوابها؟

- حنة شديدة الحزن من أجلي؛ فهي ذات قلب رحيم.

- أجل، حنة مخلصة رحيمة، غير أن لسانها سليط، وإذا كان حزنها من أجلك فقط فأنا أعتقد أن الحادث قد انتهى، فهناك مسائل أخرى عديدة تستحق الاهتمام.

فاستعاد مظهر الجد والاهتمام وقال: هذا صحيح، فيحموز ينتظرني في قاعة الاستقبال الآن ليعرض عليّ مسائل شتّى تتطلب

منّي الاهتمام العاجل، وهناك قرارات عديدة تنتظر الإجابة منّي، وكما تقولين لا ينبغي أن يحول الحزن الشخصي دون الأعمال الهامة في الحياة.

ثم غادر الحجرة مسرعاً فابتسمت إيزا ابتسامة ساخرة ثم عاد وجهها جامداً رزيناً كما كان.

* * *

كان يحموز ينتظر أباه ومعه كامني، فلمّا وافاهما أمحوتب ابتدره يحموز قائلاً: حوري مشغول بالإشراف على عمل المحنّطين واللحّادين الذين يعدّون العُدّة لجنازة نوفريت.

كانت عودة أمحوتب قد استغرقت بضعة أسابيع بعد أن نُعيَت إليه خليلته، فأخذ يحموز خلال ذلك في الإعداد للجنازة، فنقع جثمانها مدة طويلة في ماء مالح حتى استعاد هيئته الطبيعية تقريباً، ثم دهن بالزيت ومُسح بالملح ولُفّ في الأربطة ووُضع في التابوت الخاصّ به انتظاراً لعودة أبيه، ثم قال يحموز لأبيه: لقد أعددنا للجنازة الغرفة الصغيرة القريبة من المقبرة.

ومضى يذكر بالتفصيل ما أمر باتخاذه من تدبيرات، وكانت تلك الغرفة قد أُعدّت ليكون فيها قبر أمحوتب نفسه، فارتاحت نفسه لتصرّف يحموز على هذا النحو وقال: لقد أحسنت يا يحموز، ويبدو أنك تصرفت بحكمة فاحتفظت برباطة جأشك.

فاحمرّ وجه يحموز خجلاً حيال هذا الثناء غير المرتقَب ثم أطرق ساكتاً في حين استطرد والده يقول: إيبي ومونتي من المحنّطين الذين يغالون في أجورهم؛ فمثلاً هذه الأوعية الخاصة

بحفظ الأحشاء تبدو لي باهظة الثمن، والواقع أنه لا حاجة لمثل هذا الإسراف، فما يطلبونه من الأجر كبير جداً، وهذا أسوأ ما في هؤلاء المحنّطين الذين استخدمتهم أسرة الحاكم؛ فهم يحسبون أن من حقهم المطالبة بأيّ أجر، وكان خيراً لنا أن نستخدم محنّطين آخرين أقل شهرة وأجراً.

فقال يحموز: كان عليّ أن أبُتّ في هذه الأمور في غيابك، وقد حرصت على أن تُحاط زوجتك بكل تكريم لأنني أعرف سمو مكانتها عندك.

فأومأ الأب برأسه موافقاً ثم ربت على كتف ابنه قائلاً: هذا خطأ يُحسَب لك لا عليك، ولا شكّ في أنك بعيد النظر في مسائل المال وأنك لم تنفق ما أنفقت في هذا الشأن إلا لإرضائي، وعلى أية حال فأنا أرى أن نلغي التمائم غالية الثمن، ولعل هناك أشياء أخرى يمكن الاقتصاد فيها. اقرأ البيانات يا كامني.

ففرد كامني ورقة البردي أمامه وأخذ يقرأ ما فيها من بيانات.

* * *

كانت كيت تسير ببطء إلى أن وصلت إلى البحيرة حيث يلعب الأطفال مع أمهاتهم، ثم قالت لساتيبي: لقد كنتِ على صواب يا ساتيبي؛ فزوجة حيّة ليست كزوجة ميتة.

فنظرت إليها ساتيبي نظرة حائرة ولم تُجِب، فتدخلت رنزنب سائلة كيت عمّا تعنيه فعادت هذه تقول: الزوجة الحية لا يُضَنّ عليها بشيء، سواء أكان ثياباً أم حلياً، بل إن ميراث أمحوتب كاد يؤول

إلى زوجته وهي حية بدلاً من أولاده وأحفاده، أمّا وقد ماتت هذه الزوجة فأمحوتب مشغول بالاقتصاد في نفقات جنازتها؛ فلماذا يُبذر المال ويضيّعه على امرأة ميتة؟ أجل، لقد كانت ساتيبي على حق.

فتمتمت ساتيبي قائلة: وماذا الذي قلتُه؟ لقد نسيت.

فأجابتها كيت: حسناً فعلتِ، وأنا أيضاً قد نسيتُه، وكذلك رنزنب.

فنظرت رنزنب إلى كيت دون أن تتكلم، فقد بدا في صوتها شيء ينمّ عن الوعيد، وكانت رنزنب قد اعتادت أن تنظر إليها نظرتها إلى امرأة غبية خاضعة جديرة بالإهمال، ولكن العجيب الآن أنها وجدتها تتحكم في ساتيبي بعد أن كانت هذه هي المتحكمة المعتدية عادة. قالت رنزنب تحدث نفسها: الناس لا يبدّلون طبائعهم بمثل هذه السهولة، وتغيّر طبائع كيت وساتيبي في الأسابيع القليلة الأخيرة أمر يدعو إلى أشدّ العجب والحيرة، فما السبب يا تُرى؟ لا بدّ أن ساتيبي قد انهارت فجأة واعتراها تغيّر واضح؛ فصوتها لم يعُد يرتفع بسلاطتها المعتادة، كما أنها أصبحت تمشي بخطىً مترددة لا تتفق مع ما كان لها من اعتداد بالنفس، وقد كنتُ أظن أن ذلك التغيّر ناشئ من الصدمة التي تلقّتها بوفاة نوفريت، بل كان المتوقَّع منها أن تجهر بفرحها لوفاتها هكذا فجأة، كما نجا يحموز من لومها وتقريعها فاتخذ لنفسه مسلك الحزم، وعلى أية حال فهذا التغيّر الذي اعتراها جدير بالحمد، وإن كان يوحي بقلق مبهَم لا أعرف له سبباً.

وارتاعت رنزنب حينما التفتت إلى كيت فوجدتها تحملق إليها

وهي عابسة الوجه، فتذكّرت أنها كانت تنتظر منها كلمة موافقة على شيء قالته، ثم سمعتها تقول مرة أخرى: رنزنب قد نسيَته أيضاً.

ثم قالت كيت بعد هنيهة: يجب أن تكون نساء هذه الدار يداً واحدة.

فنظرت إليها رنزنب ثم سألتها متحدية: لماذا؟

فردّت كيت: لأن مصالحهنّ واحدة.

فهزّت رنزنب رأسها كالموافقة، ثم حدّثت نفسها قائلة: لا؛ فلي شخصيتي المستقلة.

ثم ردّت بصوت عالٍ: الأمر ليس بهذه السهولة.

- ماذا؟ أتريدين إثارة المشكلات؟

- لا، ولكن ماذا تعنين بكلمة مشكلات؟

- أعني أن كل ما قيل في ذلك اليوم بالقاعة الكبرى يجب أن يكون في زوايا النسيان الآن.

فضحكت رنزنب قائلة: أنت غبية يا كيت لأن الخدم والعبيد وجدتي وكل الناس قد سمعوا ما قيل يومئذ، فلماذا ندّعي أن شيئاً لم يحدث مع أنه قد حدث؟

فقالت ساتيبي: لقد كنّا وقتئذ في سَوْرة غضب ولم نقصد ما قلناه. دعي الكلام في هذا الموضوع يا كيت، وإذا كانت رنزنب تريد أن تثير المشكلات فهي وشأنها.

فردّت رنزنب بكدر: أنا لا أريد أن أثير مشكلات، ولكن من الغباوة أن ندّعي...

فقاطعتها كيت قائلة: ليس ذلك غباوة، بل حكمة. ابنتك تيتي تستحق أن تهتمي بها.

- ابنتي؟ ابنتي في خير حال.

- أجل، إنها بخير وكل شيء على ما يُرام، ولكن من الضروري أن تعلمي أن هذا قد دام لأن نوفريت ماتت.

* * *

ظلّت رنزنب صامتة تفكر في كل ذلك وهي جالسة على شاطئ البحيرة وحدها بعد أن عادت ساتيبي والأطفال إلى الدار، وكانت الشمس قد مالت للمغيب حين لمحها حوري هناك وهو يعبر الفناء، فاتخذ طريقه إليها ثم جلس بجانبها وقال لها: لقد تأخّر بك الوقت يا عزيزتي؛ فالشمس أوشكت أن تغرب، وينبغي لك أن ترجعي الدار.

فشعرت بالهدوء عند سماع صوته الرزين ثم التفتت إليه تسأله: هل من الضروري على نساء الدار أن يكنّ يداً واحدة؟

- من قال ذلك؟

- كيت وساتيبي و...

ولم تتمّ ما أرادت قوله فقال حوري: أتريدين أن تستقلّي بتفكيرك؟

- تفكيري؟ أنا لا أدري كيف أفكر يا حوري، فقد اضطرب كل شيء في ذهني. الناس غامضون؛ فكل إنسان قد تغيّر عمّا كنت أعهده، فقد كنت أظن ساتيبي جريئة صادقة العزيمة محبة للسيطرة

دائماً، لكنها الآن ضعيفة ذليلة، بل خائفة، إذن أيتهما ساتيبي الحقيقية؟ الناس لا يمكن أن يتغيروا هكذا بين يوم وليلة!

فقال لها بهدوء: أجل، هذا لا يمكن أن يتمّ بين يوم وليلة.

ثم استأنفت هي كلامها قائلة: وكيت التي كانت وديعة خاضعة دائماً، والتي كانت تدع أيّ إنسان يعنّفها صارت متحكمة في الجميع الآن، حتى سوبك نفسه صار يخشاها. وقد اختلف يحموز هو الآخَر عمّا كان عليه، فهو يصدر أوامره ولا ينتظر إلا أن يُطاع!

فسألها حوري: ولماذا يحيّرك هذا؟

- أنا لا أفهمه، كما أنني أشعر أيضاً أن حنة مختلفة تماماً عمّا كانت عليه.

ثم ضحكت وكأنها تضحك من شيء سخيف، ولكن حوري لم يشاركها في الضحك وظلّ بادي الرزانة مستغرقاً في التفكير، ثم قال لها: أنت لم تكوني تفكرين في الناس كثيراً يا رنزنب، فلو أنك فكرت بهم لأدركت...

وتوقّف عن الكلام لحظة ثم قال: أنت تعلمين أن لكل مقبرة باباً وهمياً، والواقع أن الناس كذلك أيضاً؛ فهم يخلقون لأنفسهم أبواباً وهمية ليخدعوا بها غيرهم، فإذا شعر أحدهم في قرارة نفسه بالضعف وقلّة الكفاية وضع أمامه باباً كاذباً من الكبرياء والادّعاء والاعتداد بالنفس، ولا يلبث قليلاً حتى يظن نفسه كما يظنه الناس كذلك، ولكن الباب الوهميّ ليس سوى صخرة جرداء متى جاءت الحقيقة ولمست بيدها ذلك الباب استعاد المرء شخصيته الحقيقية.

ثم أخذ نفساً عميقاً قبل أن يستطرد: وعلى هذا بدت كيت أول الأمر وادعة خاضعة، فلما نالت ما أرادته بذلك من الحصول على الزوج والأطفال والعيشة المطمئنة جاءت الحقيقة في هيئة خطر محدّق يهدد بفقد ما حصلت عليه بوداعتها وخضوعها وغباوتها، وحينئذ تكشّفَت شخصيتها الكامنة فبدت قوية جريئة كما هي في الواقع.

فقالت رنزنب ببراءة الطفولة: ولكنني لا أحب ذلك يا حوري؛ كم يخيفني أن أرى كل إنسان مختلفاً عمّا عهدته عليه، وأعتقد أنني لم أتغير، ولن أتغير.

فابتسم حوري وقال لها: أأنت حقاً كذلك؟ إذن لماذا جلستِ ها هنا كل هذه الساعات تُجهدين ذهنك في التفكير؟ هل رنزنب التي ذهبَت مع خاي كانت تجلس وتفكر هكذا؟

- لا؛ فلم تكن ثمة حاجة لذلك.

- أرأيت؟ لقد قلتها أنت بنفسك حين أشرت إلى الحاجة. أنت الآن لست تلك الطفلة السعيدة خالية الذهن التي ترى كل شيء على ظاهره كما كنت تُظهرين دائماً، فقد أصبحتِ لا تريدين أن تُفني شخصيتك في شخصيات نساء الدار، بل تريدين أن تفكري تفكيراً مستقلاً.

ففكرت قليلاً ثم قالت لحوري فجأة: أنا أعجب من أمر نوفريت حقاً!

فلمّا سألها عمّا دعاها إلى ذلك العجب قالت: لا أدري لماذا لا أستطيع إبعاد صورة نوفريت من خاطري يا حوري! لقد كانت امرأة سيئة قاسية تسعى في إيذائنا جميعاً، وهي ميتة الآن، فلماذا

لا أترك الأمر عند هذا الحد؟!

ومرّت بيدها على جبينها كأنما تحاول معاودة البحث عن الأسباب، ثم هزّت رأسها أخيراً قائلة: يُخيل إليّ أحياناً أني أعرف ما حدث لنوفريت.

- تعرفين؟! ماذا تعنين بذلك؟

- لا أستطيع أن أوضح، ولكن ذلك يحدث لي أحياناً، فأشعر بأنها هنا قريبة منّي، بل أكاد أشعر أنني هي، ويخيَّل إليّ أنني أشعر بشعورها. لقد كانت بائسة، أجل يا حوري، قد علمتُ ذلك الآن وإن كنت لم أعرفه وقتئذٍ. لقد أرادت أن تؤذينا جميعاً لأنها كانت تعِسة.

- لكنك لا تستطيعين أن تعلمي ذلك.

- أجل، لا يمكنني أن أعلمه يقيناً، ولكنني أشعر به. لقد رأيتُ في ملامحها يوماً ما ذلك البؤس وتلك المرارة وذلك البغض السحيق، ولكنني لم أدرك هذه الحقيقة حينذاك. لا بدّ أنها قد أحبّت شخصاً ثم سارت الأمور بما لم تكن تشتهي، ولعل مَن أحبّته مات أو ذهب بعيداً وتركها هكذا مُحبّة للأذى ميّالة لإحداث الجراح بالناس. يمكنك أن تقول ما تشاء، لكنني موقنة أنني على صواب. لقد أصبحَت خليلة لشيخ عجوز، وعندما جاءت معه إلى هنا أبغضناها جميعاً، فرأت أن تجعلنا جميعاً تعساء مثلها، أجل، هذه هي الحقيقة.

فنظر حوري إليها متعجباً ثم قال: أنت تتكلمين كما لو كنت واثقة مما تقولين، بالرغم من أنك لم تعرفي نوفريت تماماً.

- أنا أشعر أن نوفريت كانت كما ذكرت، فأحياناً أشعر كأنها قريبة منّي جداً.

ثم صمت الاثنان قليلاً، وكان الليل قد أرخى سدوله فقال حوري بصوت هادئ: أتعتقدين أن نوفريت لم تلقَ منيّتها قضاء وقدراً بل قُذِف بها من مكان شاهق؟

فشعرَت باستياء حينما سمعت ما يدور بخلدها يقال أمامها فقالت: لا تقُل ذلك.

فابتسم حوري وقال: ولكنني أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نقوله ما دام يدور في خلدك. أنت تعتقدين ذلك، أليس كذلك؟ وأنت تظنين أن سوبك هو الفاعل؟

ففكرت قليلاً ثم قالت: ومَن غيره كان ليفعل ذلك؟ ألا تذكر يوم قتل الأفعى؟ ألا تذكر ما قاله يوم ماتت نوفريت وهو خارج من القاعة الكبرى؟

- بلى، أذكر ما قاله، ولكن ليس الرجل القَوّال بالفَعّال دائماً.

- ولكن ألا تعتقد أن نوفريت ماتت مقتولة؟

- بلى، أعتقد ذلك، وعلى أية حال هذا رأي من الآراء ولا يوجد بأيدينا دليل، وأظن أنه لن يوجد دليل، ولهذا جعلتُ أمحوتب يقبل فكرة موتها قضاء وقدراً. لقد دفعها شخص ما، ولكننا لن نعرف أبداً من الذي دفعها.

- أتظن أنه لم يكن سوبك؟

- لا أظن أنه هو، ولكننا -كما قلتُ لك- لن نعرف من هو، ويحسن بنا ألا نفكر في الأمر.

فعادت تسأله: ولكن إذا لم يكن سوبك هو الذي دفعها، فمن تظنه فعل ذلك؟

فهزّ حوري رأسه وقال: يوجد برأسي فكرة، لكنها قد تكون خاطئة، لذا يحسن ألاّ أقول شيئاً.

- كيف؟ ألا يجدر أن نعلم الحقيقة؟

- ربما، ربما كان الأفضل لنا ألاّ نعلم.

فأحسّت رنزنب رجفة في جسدها فقالت: ولكن في تلك الحالة سأظل خائفة يا حوري.

* * *

تمت المراسم الأخيرة لدفن نوفريت، فأمسك مونتو (أحد رهبان معبد هاتور) مكنسة وأخذ يكنس بها أرض المقبرة وهو يُنشد بعض الأناشيد الخاصة ليمحو آثار أقدام الأرواح الشريرة قبل أن يغلق الباب إلى الأبد، ثم ختم باب المقبرة، ووُضعت مخلفات التحنيط من الملح والخرق وكل ما مس الجسم في غرفة صغيرة مجاورة ثم خُتم عليها كذلك.

تنفس أمحوتب الصعداء، فقد تمّ كل شيء كما ينبغي حيث دُفنت نوفريت بالمراسم اللائقة، وإن كلّفه ذلك نفقات كثيرة لم تكن هناك حاجة إليها. وبعد أن تبادل عبارات المجاملة مع الكهنة هبط الجميع إلى الدار. ثم انصرف الرجال الذين شهدوا مراسم الدفن، ونظرت رنزنب خلفها إلى الصخرة وغرفة المقبرة المختومة

ثم تمتمت قائلة: إذن هذه هي النهاية!

وشعرت بشعور الفرح، فقد كانت تخشى شيئاً لا تدري كنهه، قد يكون اتّهاماً أو اعترافاً في اللحظة الأخيرة، ولكن لم يحدث شيء من ذلك، ثم مضى كل شيء في هدوء. سمعت حنة عبارة رنزنب، فاقتربت منها قائلة: أجل، أرجو أن تكون هذه هي النهاية حقاً يا سيدتي.

فنظرت إليها رنزنب وسألتها: ماذا تعنين يا حنة؟

فتفادت حنة نظرتها وأجابت: أقول إنني آمل أن تكون هذه هي النهاية، ولكن ما نحسبه النهاية لا يلبث حتى يتضح أنه البداية أحياناً.

فسألتها رنزنب غاضبة: عمّ تتحدثين يا حنة؟ ما الذي تريدين قوله؟

- ليس من عادتي التلميح بشيء، فنوفريت قد دُفنت وكل إنسان قد رضي بذلك، لذا سيكون كل شيء كما يجب أن يكون.

- هل سألك أبي عن رأيك في موتها؟

- نعم، سألني يا سيدتي، والحق أنه عُني كثيراً بأن أبدي له رأيي كاملاً غير منقوص.

فعادت تسألها: وماذا قلتِ له؟

فردّت حنة بقولها: لقد قلتُ له أنني أظن موتها قضاء وقدراً طبعاً، وأكدتُ له أنه ليس هناك ما يدعو إلى الظن بأن أحداً من أفراد الأسرة قد مس الفتاة بأذى لأنّهم جميعاً أشد احتراماً له من

أن يفعلوا ذلك، وقد يتذمرون لكنهم لن يزيدوا على ذلك شيئاً، وكذلك أكدتُ له أنه لم يحدث أي شيء يمكن أن يُعَدّ من قبيل العدوان.

- وهل صدّقكِ أبي؟

فأومأت برأسها موافقة ثم قالت: أبوك على يقين من أنني مخلصة له حريصة على ما فيه صالحه، وهو يصدق ما تقوله حنة العجوز دائماً؛ فهو يقدّرني أكثر مما يقدّر أحداً منكم، ولهذا أُخلص له ولكم جميعاً، ولا أنتظر منكم جزاء ولا شكوراً.

- هذا صحيح، فقد كنتِ مخلصة له، ولنوفريت أيضاً.

- لم تكن نوفريت داهية إلى الحد الذي حسبتُه، لكنها كانت فتاة متكبرة تظن أنها ملكت العالَم. وعلى أية حال فقد استرحنا منها.

ثم زادت على ذلك أن همست قائلة وكأنها تحدث نفسها: على الأقل هذا ما أرجوه!

* * *

نظرت رنزنب بعطف إلى أخيها يحموز حين جاءها وقد بدا عليه القلق، ثم قال لها: أريد أن أحدثك عن ساتيبي يا رنزنب؛ فقد اعتراها شيء لا افهمه.

فهزت رنزنب رأسها أسى وأسفاً ولم تجد كلمة عزاء تقولها فسكتت، في حين واصل يحموز كلامه فقال: لقد لاحظتُ أن تغيّراً قد اعتراهاً منذ فترة؛ فهي ترتاع وترتجف كلما فوجئت بصوت غير مألوف، وقد أصبحَت تنأى بنفسها عن الطعام، وصارت تمشي

في المنزل وكأنها خائفة من ظلها. لا بدّ أنك لاحظت ذلك أيضاً يا رنزنب.

- أجل، لاحظناه جميعاً.

- لقد سألتُها عمّا إذا كانت تشعر بأنها مريضة، وهل أبعث في طلب طبيب ليعالجها، فردّت بأنها لا تشكو أي مرض أو أي شيء.

فرأت رنزنب أن عليها أن تقول لأخيها الأكبر شيئاً يخفّف من قلقه ومخاوفه فقالت: إنها تصرّ على أنها بخير ولا ينقصها أيّ شيء.

فتمتم يحموز قائلاً: هي لا تكاد تجد سبيلاً إلى النوم، فإذا حدث أن نامت فسرعان ما تستيقظ صارخة خائفة، كما أنها تصرخ في أثناء نومها. هل تعتقدين أنها تخفي حزناً أو همّاً لا نعرفه؟

فهزّت رنزنب رأسها معارِضة وقالت: ليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الظن؛ فالأطفال بخير ولم يحدث في الدار ما يوجب الحزن، فيما عدا وفاة نوفريت، وهذا لا يمكن أن يثير في نفس ساتيبي أيّ حزن أو أسف.

- هذا التغيّر الذي حدث لها بدأ قبل وفاة نوفريت.

ثم بدا عليه أنه ليس على يقين من ذلك فواصل كلامه قائلاً: أجل، هذا على ما أظن. وأنتِ؟ ألم تلحظي تغيّراً في ساتيبي قبل وفاة نوفريت؟

- الحق أنني لم ألحظه عليها إلاّ بعد هذه الوفاة.

تنهّد يحموز أسفاً ثم عاد يسألها: ألم تقُل لك ساتيبي شيئاً؟

فهزّت رنزنب رأسها مجيبة: نعم، لم تقُل لي شيئاً، وأنا لا أحسبها مريضة، بل يخيَّل لي أنها خائفة.

فبدت الدهشة على وجهه وقال: خائفة؟! من أيّ شيء تخاف؟ لقد كانت لها شجاعة الأسد دائماً.

- أعرف ذلك، وقد كنّا جميعاً نحسبها هكذا. ولكن الناس يتغيرون، وهذا أمر عجيب.

ولم يقتنع بهذا الرأي فسألها: أتظنين أن كيت تعرف شيئاً؟ هل صارحَتها ساتيبي بشيء؟

- هي أقرب إلى أن تصارحَها من أن تصارحني، ولكنني لا أظنها صارحَتها بشيء، بل أنا موقنة بهذا.

- وما رأي كيت؟

- كيت؟ كيت لا تفكر في أي شيء الآن.

وتذكرت رنزنب أن كيت انتهزت فرصة الوداعة التي طرأت على ساتيبي، فأخذت لنفسها ولأطفالها أفضل الكتّان الذي تمّ نسجه أخيراً، وهي ما كانت لتجرؤ عليه لو أن ساتيبي بقيت على حالها، بل كان المنزل يمتلئ بضجة الشجار. كَون ساتيبي تركت كيت تختار ما يروقها من القماش قد أثار دهشتها أكثر من أيّ شيء آخر، ولهذا سألت أخاها يحموز قائلة: هل تحدّثتَ إلى إيزا؟ إيزا جدتنا تعرف النساء وطرائقهنّ.

فقال بشيء من الامتعاض: إيزا تحمد الرب على هذا التغيير الذي طرأ على ساتيبي، وتقول إنه من الغلوّ في التفاؤل أن نأمل دوامه.

فسألته بعد تردد: هل تحدثتَ مع حنة؟

فقطب يحموز جبينه وقال: حنة؟ لا؛ فما كنتُ لأتحدث معها عن مثل هذه الأمور؛ فهي تتدخل فيما لا يعنيها، وقد جعلها أبي تتجرّأ كثيراً.

- أعلم ذلك، فهي متعِبة، ولكنها تعرف كل الأسرار.

- أيمكن أن تسأليها ثم تخبريني بما قالته؟

- لا بأس من ذلك.

ثم افترقا على ذلك فمضت رنزنب تبحث عن حنة حتى وجدتها أخيراً على مقربة من حجرة النسيج، فلمّا سألتها عن حالة ساتيبي دُهشت حين وجدتها منزعجة من هذا السؤال وتلتمس تميمة لتحميها، ثم ترفض الاستمرار في الحديث كعادتها مكتفية بقولها: هذا ليس من شأني، وليس من مهمتي أن ألحظ بقاء أحد هنا على حاله المألوفة أو تغيره. أنا لا أُعنى إلا بشؤوني الخاصّة، وإذا كانت هناك مشكلات فأنا لا أحب أن تكون لي يد فيها.

فسألتها رنزنب: مشكلات؟! أي مشكلات تقصدين؟

فتمتمَت حنة قائلة: لا شيء مما يعنينا على أية حال؛ فأنا وأنت يا رنزنب لم نفعل شيئاً يؤنبنا ضميرنا من أجله، وهذا عزاء كبير لي.

- أتعنين أن ساتيبي...؟

فقاطعتها حنة قائلة: لا أعني شيئاً مطلقاً يا رنزنب، وأرجو منك ألاّ تحاولي معرفة شيء منّي؛ فأنا لستُ أكثر من خادمة في هذه الدار، وليس من شأني أن أُبدي رأياً في أمور لا تخصني، ولو

سألتني رأيي عن ساتيبي فسأقول لك أن التغير الذي اعتراها خير، وهي إذا بقيت على حالها الآن فستحسن صنعاً.

ثم تركتها منصرفة إلى حجرة النسيج وهي تقول: معذرة يا سيدتي؛ فأنا أريد أن أتفقد سير العمل لأن القائمات بمهمة الرسم على الكتّان يتكلمن ويضحكن كثيراً، وهذا يؤثر على عملهن.

فظلّت رنزنب تتبعها بنظراتها حتى اختفت داخل الحجرة، ثم عادت بخطى بطيئة إلى المنزل فدخلت غرفة ساتيبي دون أن تسمع هذه وقع خطاها، فلمّا شعرت بيدها تلمس كتفها صرخت قائلة: لقد روّعتِني يا رنزنب، لقد ظننتُ...

ثم سكتت دون أن تتم عبارتها فسألتها رنزنب: ماذا دهاك يا ساتيبي؟ يحموز قلق لأجلك.

- يحموز؟ وماذا قال؟

- هو قلق لأنك تصرخين وتتكلمين في نومك.

فذُعرت ساتيبي ثم سألتها: أنا أتحدث في نومي؟ ماذا سمع منّي يحموز؟ ألم يخبرك بذلك؟

- لا عليك يا ساتيبي، فهو وأنا لا نظنك إلا مريضة أو قلقة لسبب ما.

- قلقة؟ وما الذي يقلقني؟ أنا لا أدري.

- هل أنت سعيدة يا ساتيبي؟

فصمتت ثم أجابت قائلة: ربما، لا أدري، ليس هذا هو المشكلة.

- ولكنك خائفة، أليس كذلك؟

فنظرت إليها ساتيبي شزراً ثم أجابتها: ولماذا تقولين ذلك؟ ولماذا أكون خائفة؟ ما الذي يمكن أن يخيفني؟

- لست أدري، ولكنه صحيح، أليس كذلك؟

فاستعادت ساتيبي سمات التبجح الذي كانت عليه من قبل بجهد ثم قالت: لا، أنا لستُ خائفة من شيء ولا من أحد. كيف تجرئين على قول ذلك لي يا رنزنب؟ أنا لا أسمح لك بالحديث عنّي مع يحموز؛ فأنا ويحموز يفهم كل منّا الآخَر.

وصمتت لحظة ثم قالت بحدّة: نوفريت ماتت واسترحنا منها، هذا رأيي، ويمكنك أن تخبريه لكل من يسأل عن شعوري.

ثم تولاّها الغضب من جديد فجأة فقالت بحدّة أشدّ: نوفريت، نوفريت. لقد سئمت سماع هذا الاسم، ويجب ألاّ نسمعه بعد اليوم في هذا المنزل، ولنحمد الآلهة على ذلك.

وفي تلك اللحظة دخل يحموز فخفضت ساتيبي من صوتها ثم سكتت في حين قال هو لها: اهدئي يا ساتيبي؛ فلو سمع أبي هذا الذي تقولينه لكانت العاقبة سيئة. كيف تكونين بهذه الحماقة؟

وكان يحموز يتكلم بلهجة حازمة غير مألوفة منه، وسرعان ما عاود ساتيبي ضعفها وانهيارها وتمتمت قائلة: أنا آسفة يا يحموز. لقد فاتني أن أفكر في ذلك حقاً.

- إذن كوني أكثر حذراً في المستقبل. النساء ضعيفات العقل دائماً.

فتمتمت ساتيبي مكرّرة أسفها بخنوع وخضوع، ثم غادر

يحموز الحجرة بخطى ثابتة منتصب القامة كأن تأكيد سلطته على زوجته قد أرضاه، ثم انصرفت رنزنب بعده إلى غرفة إيزا العجوز لعلّها تجد عندها الخبر اليقين.

كانت إيزا تأكل عنباً، ولم تتلقَّ الأمر بجد واهتمام فقالت: ساتيبي... ساتيبي! ما هذه الضجة التي حولها؟ سلوكها هذا من الأفضل أن يدوم، وأتمنّى أن يستطيع يحموز أن يبقيها كذلك، أجل، فهو يبدو كأنما استعاد ما غاب عن عقله، وقد أحسن حين أخذها بسياسة الشدة، فهذا ما كانت تحتاج إليه، فلا شكّ أنّها من ذلك النوع من النساء اللاتي يجدن المتعة في الشدة، ولا بدّ أن يحموز بوداعته ولينه كان امتحاناً قاسياً لها.

- يحموز أهل لأن يكون محبوباً؛ فهو شفيق بالجميع وديع مثل النساء... إذا كنّ وديعات.

- هذا استدراك في محله يا حفيدتي. لا، ليس للنساء وداعة، وقلّ بينهنّ مَن تهتم لزوج شفيق رقيق، فأكثرهن يؤثرن الشابّ الوسيم الجعجاع مثل سوبك، أو الشابّ الأنيق مثل كامني، أليس كذلك يا رنزنب؟ الذباب الذي بفناء الدار لا يقف عليه كثيراً، كما أنه يحسن غناء أغاني الحب أيضاً.

فشعرت بالدم يصعد إلى خديها ثم قالت برزانة: لا أدري ماذا تقصدين؟

- أنتم جميعاً تحسبون أن إيزا العجوز لا تعلم ما يدور بالمنزل، لكنني أعرف كل شيء.

ثم نظرت إلى رنزنب بعينيها اللتين كادتا تعميان وقالت: أجل، فأنا ربما أعرف كل شيء قبل أن تعرفي أنت شيئاً يا بنيتي،

هذه سُنّة الحياة يا رنزنب. لقد كان خاي أخاً صادقاً لك، ولكنه يقود شراعه في ميدان الهبات الآن، وستجد الأخت أخاً جديداً يصيد سمكه بالحراب في نهرنا، وإن يكن كامني قليل البراعة لأن كل ما يخلب لبه قلم من البوص ورقعة من ورق البردي، ومع هذا فهو شاب وجيه حسن الذوق في الأغاني. ورغم كل ذلك لستُ موقنة بأنه الزوج اللائق بك، كما أننا لا نعلم كثيراً عنه لأنه من أبناء الشمال. وأرى أن أمحوتب راضٍ عنه، ولكنني أعتقد دائماً أن أمحوتب أحمق؛ فأيّ إنسان يمكن أن يكتسب ثقته بالزلفى. أنظري إلى حنة مثلاً.

- أنت مخطئة فيما تذهبين إليه يا جدتي.

- حسناً، أنا مخطئة إذن، وأبوك ليس أحمق.

- لم أقصد هذا. أنا أتمنى...

فقاطعتها جدتها قائلة: أنا أفهم ما تعنين، ولكنك لا تعرفين الحقيقة جيداً، وهي أنك سوف تكونين هكذا فيما بعد، حينما تبلغين سني ثم ترين ابنك يُجَنّ حباً بفتاة حسناء وترينها تجعل المنزل كله آذاناً مصغية. لقد كانت داهية، فقد كانت تعرف كيف تغضبهم جميعاً، فكأنها كانت ترغمهم على النظر إلى وجوههم في صفحة الماء، وكانت تُريهم كيف يبدون للناس على حقيقتهم، ولكن لماذا كرهتكِ يا رنزنب؟ أجيبيني عن ذلك.

فسألتها بدهشة: أكانت تكرهني؟! لقد حاولتُ يوماً أن أكتسب مودّتها.

فأجابتها إيزا: لكنها رفضَت ذلك، فقد كرهتك حقاً يا رنزنب.

وصمتت إيزا لحظة ثم قالت: هل كان ذلك بسبب كامني؟

فاحمرّت وجنتا الفتاة ثم قالت: كامني؟ لا أدري ماذا تقصدين.

- نوفريت وكامني جاءا من الشمال، ولكن كامني كان يرقبك كلما خطرتِ أمامه في فناء الدار.

وهنا استدارت رنزنب للانصراف فجأة قائلة: يجب أن أذهب لأرى ابنتي.

ثم خرجت وسارت مسرعة في فناء الدار وضحكة جدتها تتبعها، فلما توسطت الفناء وصل إليها صوت كامني يناديها من الشرفة قائلا: تعالي يا رنزنب، لقد ألفت أغنية جديدة وأريدك أن تسمعيها.

فهزّت رأسها وأسرعت في طريقها، وكان قلبها يدق دقاً عنيفاً من الغضب.

* * *

كرّر حوري اسم رنزنب مرتين قبل أن تسمعه وتنظر إليه بعد أن كانت تنظر إلى النيل وتتأمله بعمق، ثم قال لها: لقد كنتِ مستغرقة في التفكير يا رنزنب، ففيمَ تفكرين؟

فردّت عليه متحدية: كنتُ أفكر في خاي.

فنظر إليها لحظة ثم ابتسم وقال: فهمتُ.

غير أنها أدركت أنه لم يفهم فقالت له: ماذا يحدث للإنسان حين يموت؟ هل يعلم أحد ذلك علم اليقين؟

- لا يمكنني أن أجيبك يا رنزنب، يجب أن تسألي كاهناً في مثل هذه الأمور.

- وهو لن يجيب إلا بالشرح المعتاد، ولكنني أريد أن أعرف الحقيقة.

فقال حوري بلطف: لن يعرف أحد منّا الحقيقة إلا بعد أن يصير في عداد الأموات.

فارتجفت عند سماعها ذلك وقالت: لا تقُل ذلك.

- هل أزعجكِ شيء يا رنزنب؟

- أجل، أزعجَتني جدتي العجوز إيزا.

وصمتت قليلاً ثم تابعت قائلة: أخبرني يا حوري، هل كان كامني ونوفريت يعرف أحدهما الآخر قبل مجيئهما إلى هنا؟

فصمت حوري هنيهة ثم قال وهو يمشي معها جنباً إلى جنب صوب المنزل: فهمتُ، إذن هذا ما أزعجك، أليس كذلك؟

- ماذا تعني بذلك؟ إنما أنا أسألك سؤالاً.

- أجل، لكنني لا أعرف جواباً. لقد كان كل من نوفريت وكامني يعرف الآخر حينما كانا في الشمال، ولكن لا أعلم مدى هذه المعرفة حينئذ، وعلى أية حال ماذا يهمنا من ذلك الآن؟

- لا أهمية له مطلقاً، فنوفريت قد ماتت.

- أجل، ماتت وحُنّطت وخُتم على قبرها.

- هذا صحيح.

وبعد لحظة قالت: آه يا حوري. المرء يجد عندك الطمأنينة.

فابتسم حوري وقال: لقد كنتُ أصلح الأسد الخشبي لرنزنب وهي طفلة، والآن عندها دمى أخرى.

ولمّا وصلا إلى الدار لم ترغب في الدخول وقالت: لا أودّ أن أدخل الدار الآن؛ فأنا أبغضهم جميعاً، لا أعني البغض الحقيقي، ولكنني أشعر بكراهية لهم لأن كل واحد منهم شاذّ، وأنا قد نفد صبري. هلاّ صعدنا إلى المقبرة؟ المكان جميل هناك وأعلى من كل شيء هنا.

- هذا ما أشعر به أنا أيضاً يا رنزنب، فهناك يرى المرء أن الدار والمزرعة والزراعة كلها قليلة الأهمية، فننظر إلى ما وراءها كلها، إلى النهر وما وراءه، إلى مصر كلها، لأن مصر ستصبح مملكة موحدة قوية عظيمة مرة أخرى كما كانت في القديم.

فتمتمت هي متسائلة: وهل هذا أمر مهم؟

فابتسم حوري وقال: طبعاً هذا لا يهمّ سيدتي الصغيرة، إنما يهمّها أسدها وحده.

- أنت تسخر منّي، إذن فالأمر مهم بالنسبة لك.

فتمتم حوري قائلاً: ولماذا يهمني؟ أجل، لماذا؟ أنا لست إلاّ وكيل أعمال كاهن كا، فلماذا يهمني أن تكون مصر كبيرة أم صغيرة؟

فاتجهت رنزنب بنظرها إلى صخرة فوقهما قائلة: لقد ذهب يحموز وساتيبي إلى المقبرة، وها هما يهبطان الدرب الآن.

فقال حوري: أجل، فقد كانت هناك بعض أشياء يجب أن تُزال، مثل بعض لفات من الكتّان لم يستعملها المحنّطون، وقد قال يحموز لي إنه سيأخذ ساتيبي إلى هناك لتخبره بما يمكن أن يفعله بذلك القماش.

وقد وقف الاثنان ينظران إلى يحموز وساتيبي وهما يهبطان الدرب، فلما بلغا مكاناً هناك توقفا قليلاً، وكانت ساتيبي تسير إلى الأمام ويحموز خلفها على مسافة قريبة، وفجأة أدارت رأسها ملتفتة إليه كأنما تحدثه، وهنا خطر ببال رنزنب أن هذه البقعة هي التي سقطت منها نوفريت سقطتها الأخيرة، كما خُيّل إليها أن ساتيبي إنما التفتت إلى يحموز لتحدثه بذلك.

ولكن ساتيبي وقفت في مكانها جامدة وأخذت تنظر إلى الدرب خلفها، ثم رفعت ذراعيها كأنها تتلافى منظراً مخيفاً أو لتصدّ ضربة ستنزل بها، ثم صاحت وتعثّرت فجرى يحموز إليها، وإذا بها تصرخ صرخة مدوّية ثم تندفع إلى طرف الطريق وتهوي منه إلى الصخور السحيقة، فرأتها وهي تسقط، وكادت ألاّ تصدّق عينيها، لكنها جرت بأقصى قوتها صوب المكان الذي سقطت فيه ساتيبي فوجدتها جثة هامدة محطَّمة حيث رقد جثمان نوفريت من قبل، وكان يحموز قد جرى هابطاً الدرب حتى وصل إلى ذلك المكان، ثم انحنت رنزنب فوق جثمان ساتيبي فرأت عينيها مفتوحتين وأهدابها تضطرب وشفتيها تتحركان كأنها تريد أن تقول شيئاً، فامتلأت رعباً من نظرتها، ثم استطاعت ساتيبي أن تقول بصوت واهن: نوفريت...

ثم سقط رأسها إلى الخلف وهبط فكها، وكان هذا آخر عهدها بالكلام!

وقف حوري بجانب يحموز أمام جثمان ساتيبي واجمَين، فقالت رنزنب لأخيها: ماذا قالت قبل أن تسقط؟

كان يحموز متقطع الأنفاس لا يكاد يستطيع الكلام فأجاب بكلمات متقطعة قائلاً: لقد نظرَت ورائي من فوق كتفي، فكأنها رأت أحداً قادماً، ولكن لم يكن أحد هناك.

فردّد حوري قوله: لم يكن أحد هناك.

فاستأنف يحموز كلامه وقد انخفض صوته حتى صار همساً لفرط ما اعتراه من الرعب فقال: وعندئذ صاحت و...

فقطعت رنزنب كلامه سائلة في لهفة: ماذا قالت؟

فأجاب بصوت مرتعش قائلاً: صاحت قائلة: نوفريت، نوفريت!

* * *

الفصل السابع

قالت رنزنب لحوري وهي جالسة عند مدخل الغرفة الصخرية الصغيرة المجاورة للمقبرة وقد نظرت إلى الوادي السحيق مسندة ذقنها إلى يدَيها: إذن هذا ما كانت تعنيه، ساتيبي هي التي قتلت نوفريت.

وكان حوري ما يزال صامتاً ولم يجب عن سؤالها، فلم يسعها إلا أن تتابع خواطرها علناً قائلة له: لقد كنتُ موقنة أن سوبك...

لكنها لم تتمّ عبارتها؛ فقد قال لها حوري: أجل، فقد كان هذا رأياً لا أساس له يا رنزنب.

فأومأت برأسها موافقة قائلة: كانت هذه حماقة منّي ولا شك، ولقد أخبرتَني (أو تركتَني أفهم) أن ساتيبي سلكت هذه الطريق بعد أن سبقتها إليه نوفريت، وهناك تقابلتا وسط الدرب فدفعت ساتيبي نوفريت دفعة قوية مفاجئة فهوت متردّية من أعلى، وكانت قد ذكرَت قبل ذلك بقليل أنها أكثر رجولة من أخوَيّ الاثنين.

وتولّتها رعدة فصمتت، ثم عادت تستطرد قائلة: كان ينبغي لي أن أدرك ما حدث عندما قابلتُها بعد ذلك، فقد كانت -على غير ما عهدتها- خائفة، وحاولَت أن تقنعني بالعودة معها، ولا

شكّ أنها كانت لا تريد أن أعثر على جثة نوفريت. لقد كنتُ عمياء لأنني لم أرَ الحقيقة وقتئذ، ولكنني كنت أتوقع أن ما حدث من عمل سوبك.

- أنا أعرف ذلك، فقد دعاك إلى إساءة الظن به أنه قتل الأفعى.

- أجل، وقد رأيتُ في المنام رؤيا. مسكين سوبك! لقد أسأت الظن به، وكما قلتَ أنت، الوعيد غير الفعل، فقد كان سوبك دائماً كثير الكلام والفخر، أما ساتيبي فقد كانت جريئة لا تهاب شيئاً. هل تذكر كيف صارت منذ ذلك الحين وكيف كانت تسير كالشبح؟ لقد حزنّا عليها جميعاً. لماذا لم نهتدِ إلى التفسير الصحيح؟

ثم صمتت تنتظر ما يقول، لكنها استأنفت كلامها قائلة: أنت قد اهتديت إليه، أليس كذلك؟

- الواقع أنني ظللت فترة من الزمن وأنا موقن بأن مفتاح الحقيقة في أمر وفاة نوفريت إنما هو التغيّر العجيب الذي اعترى ساتيبي، فقد كان شيئاً ملفتاً للنظر ولا بدّ أن له باعثاً.

- لكنك بقيتَ صامتاً.

- وماذا أستطيع قوله؟ وأيّ دليل كان بيدي؟

- صدقتَ؛ فلم يكن هناك أيّ دليل.

- الأدلة يجب أن تكون وقائع ثابتة مجسَّمة.

فالتفتت إلى حوري متسائلة: ما الذي رأته ساتيبي هناك في

الدرب؟ نحن لم نرَ أيّ شيء، لكنها هي التي رأت الشيء ولا شكّ، فلعلّها رأت نوفريت مقبلة لتنتقم منها، ولكن نوفريت ماتت وخُتم على قبرها، فما الذي رأته ساتيبي إذن؟

- لا بدّ أنها رأت الصورة التي ارتسمت في مخيّلتها لنوفريت.

- أواثق أنت من صحة احتمال هذا؟ الأمر إذن لم يكن...

ثم سكتت ولم تكمل عبارتها فنظر إليها متسائلاً، وأرهف سمعه لتتمّ كلامها فقالت: هل ترى أن الأمر قد انتهى بعد أن ماتت ساتيبي يا حوري؟ هل انتهى حقاً؟

فأمسك يدَيها بين يديه مطمْئناً وقال: نعم يا عزيزتي، ولا شكّ أنك -على الأخص- لا ينبغي أن تخافي شيئاً.

- لكن إيزا تقول إن نوفريت كانت تُكِنّ لي البغض.

فبدت الدهشة على وجهه ثم قال: نوفريت كانت تبغضك؟!

- هذا ما قالته لي إيزا.

- لقد كانت شديدة البغض، وقد كنتُ أظنها تبغض كل شخص بالدار أحياناً، ولكنك على الأقل لم تؤذيها بشيء.

- أجل، أنا لا أذكر أنني آذيتها قط.

- ومن أجل هذا ليس بداخلك شيء يقوم ضدك.

ففكّرت لحظة ثم سألته: أتعني أنني إذا مشيت في ذلك الدرب وحدي عند الغروب، وهو الوقت الذي توفيت فيه نوفريت،

سأكون في أمان ولن أرى شيئاً يخيفني إذا التفتّ خلفي؟

- نعم، ستكونين في أمان لأنك إذا سرتِ في ذلك الدرب فسأسير معك ولن يصيبك مكروه.

فقطّبت جبينها وهزت رأسها قائلة: لا، بل سأسير وحدي.

- ولكن ألا تخافين إذا سرت وحدك في الدرب؟

- أظنني سأخاف، ومع ذلك يجب أن أسير وحدي هناك. جميع من بالدار تولاّهم الرعب، فهم يُهرعون إلى المعابد لشراء التمائم والتعاويذ، ويحذّر بعضهم بعضاً من سلوك طريق المقبرة عند الغروب، غير أن السحر -فيما أعتقد- ليس هو الذي جعل ساتيبي ترمي بنفسها من أعلى، وإنما الخوف، الخوف من شرّ صنعَته.

وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة: أجل، إنه الشر الذي أتته بقتلها فتاة في عنفوان شبابها وقوتها واستمتاعها بالحياة، أما أنا فلم آتِ مثل ذلك الشر، وإذا كانت نوفريت تبغضني فهي لا تستطيع إيذائي، هذا ما أعتقده، وعلى أية حال إذا قُدر لإنسان أن يعيش حياته في خوف فخير له أن يموت، ولهذا سأتغلب على الخوف.

فابتسم حوري وقال: هذه كلمات تدلّ على الشجاعة.

- أجل، إنها تدل على الشجاعة، ولكن الواقع أن شجاعتي أقلّ مما تتصور.

ثم ابتسمَت له وقامت من مقعدها قائلة: على أية حال لقد ارتحت حين قلتُها.

فقام حوري ووقف بالقرب منها ثم قال: سأذكر لكِ هذه الكلمات، وكيف رفعت رأسك إلى الخلف وأنت تقولينها لتدل على الشجاعة والصدق اللذين شعرتِ بأنهما يعمران قلبك دائماً.

- أظنني أدرك يا حوري أنك تختلف عن الآخرين ممن هم معنا بالدار، وقد أدركتُ ذلك منذ زمن، وعندما أكون معك أشعر بمثل شعورك أحياناً، وهو شعور غامض غير واضح، لكنني أفهم ما تعني، كما أنني عندما أكون هنا لا أبالي بشؤون الدار هناك، بما فيها من شجار وبغضاء وضجيج، فإلى هنا يفرّ الإنسان من كل ذلك.

ثم صمتت وقد تجعّد جبينها ثم أردفت قائلة بتردد: أنا أشعر بالسرور لفراري من المنزل إلى هنا أحياناً، ومع ذلك أشعر أن شيئاً ما في المنزل يدعوني إليه.

فترك حوري يدها وتراجع قليلاً إلى الوراء وقال برفق: أجل، أعرف ذلك، فهو كامني حين يغنّي في صحن الدار، أليس كذلك؟

فنفرت قائلة: ماذا تعني يا حوري؟ أنا لم أكن أفكّر في كامني.

- ربما لا تفكرين فيه، ومع هذا يخيَّل إليّ أنك تسمعين غناءه من حيث لا تدرين يا سيدتي.

فحملقت إليه رنزنب عابسة وتمتمت: ما أغرب ما تقوله يا حوري! الإنسان لا يمكن أن يسمعه من هنا وهو يغنّي في صحن الدار؛ المسافة طويلة جداً.

فتنهّد حوري وهزّ رأسه، وقد حيّرَتها نظرته كما حيّرها قوله، فشعرت بشيء من الغضب والدهشة لأنها لم تفهم ما يعنيه.

* * *

وقفت حنة بباب غرفة إيزا مبتسمة ابتسامة التودّد ثم سألتها: أتسمحين لي أن أكلمك لحظة يا إيزا؟

فسألتها العجوز بحدّة: ماذا تريدين؟

فردّت حنة قائلة: لا شيء ذا أهمّية فيما أعتقد، ولكنني أردتُ أن أسألك عن بعض أشياء.

فأشارت إيزا إليها بالدخول ثم ربتت بعصاها كتف جارية سوداء كانت تنظم قلادة من الخرز قائلة: اذهبي إلى المطبخ فائتيني ببعض الزيتون، ثم أعدّي لي كوباً من الليمون.

فسارعت الجارية إلى المطبخ في حين أشارت إيزا إلى حنة كي تقترب منها، ثم نظرت إليها متسائلة، وما لبثت هذه أن أخذت من جيبها علبة صغيرة للحُليّ ذات غطاء يُغلَق بزرّين، ثم مدت يدها بها إلى إيزا قائلة: لقد أتيتُ إليك من أجل هذه العلبة يا إيزا.

فأخذت إيزا تنظر بعينيها الضيقتين تارة إلى العلبة وتارة أخرى إلى حنة، ثم قالت حنة بعد قليل: هذه علبتها، وقد وجدتُها في غرفتها.

- هل تقصدين ساتيبي؟

- لا، لا، بل أقصد الأخرى.

- نوفريت؟ وما أهمية ذلك؟

– لقد دُفنت كل حليها وأوعية زينتها وأوعية عطورها معها كما تعلمين.

ففكت إيزا رباط العلبة من زرّيها، ثم أخذت منها خيطاً نُظمَت به حبات عقيق أحمر ونصف خرزة خضراء لامعة انكسرت شطرَين ثم قالت: هذا شيء ليس ذا قيمة، ولعله لذلك لم يُدفَن معها.

– لكن المحنّطين أخذوا كل شيء يخصّها.

– لا بدّ أنهم نسوا هذا، ألا يسهون مثل غيرهم من البشر؟

– لكنني متأكدة يا إيزا أن هذه العلبة لم تكن موجودة في غرفتها حين فتّشتُها آخر مرة.

فنظرت إليها إيزا نظرة فاحصة قائلة: ما الذي ترمين إليه يا حنة؟ أتريدين أن تُلقي في روعي أنها عادت من العالَم السفليّ وأنها موجودة الآن بالدار؟ أنت لست بلهاء حقيقة وإن كنت تدّعين البلاهة أحياناً، ولا أدري ماذا يهمّك من نشر قصص السحر السخيفة.

فهزّت حنة رأسها بتشاؤم قائلة: نحن جميعاً نعلم ما حدث لساتيبي، ونعلم السبب.

– قد يكون ذلك صحيحاً، ولعل بعضنا كان يعلمه من قبل، أليس كذلك يا حنة؟ فقد كنتُ دائماً أظنّك تعرفين شيئاً عن الطريقة التي ماتت بها نوفريت أكثر منّا جميعاً.

– لا يمكن أن تتصوري يا إيزا لحظة أن...

فقاطعتها إيزا قائلة: ماذا أتصور؟ أنا لا أخاف من تصور أيّ شيء يا حنة، فقد رأيتُ ساتيبي في الشهرين الأخيرَين تسير في المنزل والخوف يكاد يقتلها، فخطر ببالي حينئذ أن ما صنعَته بنوفريت ربما وقف على سرّه أحد فهدّدها بإفشاء السر ليحموز أو لأمحوتب نفسه.

فأخذت حنة تؤكد أنها لم تكن تعلم شيئاً فقالت لها إيزا: أنا لم أتصور قطّ أن تعترفي بأنك فعلت مثل ذلك.

- ولماذا أفعله؟ ليس ثمة أي داعٍ إليه.

- الواقع أنك كثيراً ما تفعلين أشياء لا أجد لها تفسيراً يا حنة.

فتحفزت حنة للانصراف قائلة: سآخذ العلبة إلى أمحوتب وأخبره.

- سأعطيه العلبة بنفسي. اغربي عن وجهي يا حنة، وحذارِ أن تقصّي قصصك الخرافية، فقد أصبح المنزل أكثر سكوناً بعد ساتيبي، ونوفريت الميتة قد أفادت أكثر منها حية، والآن وقد تمّ الوفاء بالدين فليعُد كل إنسان إلى واجباته اليومية.

ومضت إيزا في إلقاء تعليماتها ونصائحها بأعلى صوتها، ثم انصرفت حنة، وبعد دقائق جاء أمحوتب إلى غرفة أمه وقال لها: ما هذا كله؟ حنة في شدة الكدر، فقد جاءت إليّ ودموعها تنحدر على وجهها. لماذا لا تجد هذه المرأة المخلصة أيّ شيء حتى المجاملة المعتادة من أيّ أحد في هذا المنزل؟!

فلم تتحرك إيزا ولم تجب بل ضحكت ضحكتها التي تشبه

صوت الدجاج، فاستطرد أمحوتب قائلاً: قد اتهمتِها بسرقة علبة حليّ حسبما فهمتُ، أليس كذلك؟

فأجابته أمه: أهذا ما قالته لك؟ أنا لم أتهمها بذلك، وها هي ذي العلبة، ويظهر أنها وُجدت في غرفة نوفريت.

فأخذ أمحوتب العلبة ونظر إليها ثم قال: هذه هي العلبة التي أهديتها إليها.

ثم فتحها وقال: ليس بها شيء ذو قيمة، وقد كان المحنّطون مهملين حقاً إذ لم يأخذوها مع الأشياء الأخرى التي تخصّها. لقد طلب إيبي ومونتو أجوراً باهظة، وكان جديراً بهما ألاّ يكونوا بهذا الإهمال على الأقل. على أية حال يبدو لي أن الأمر ليس بالأهمية التي وُصِف بها.

ثم صمت هنيهة وعاد يتابع: لقد كنت مطمئنّاً لسلوك يحموز في المدة الأخيرة، فقد كان يبدو أكثر اعتماداً على نفسه وأقلّ خوفاً، وكان تصرفه حسناً في كثير من الشؤون.

- الواقع أنه ولد طيب مطيع دائماً.

فأومأ أمحوتب برأسه موافقاً وقال: أجل، ولكنه ميّال إلى البطء ويخاف أن يحمل التبعات.

فأجابته إيزا بجفاء: أنت لم تسمح له قط أن يحمل التبعات.

- حسناً، سيتغير كل ذلك عمّا قريب، فأنا أُعدّ الآن وثيقة لإشراك أولادي الثلاثة في كل ما أملك، وسينتهي إعداد هذه الوثيقة بعد أيام.

- إذن سيكون إيبي شريكاً لك مع أخوَيه أيضاً، أليس كذلك؟

- بلى، فإذا لم أدخله في الشركة لآذاه ذلك، وهو فتى جدير بالحب والإعزاز.

فأجابته أمه ساخرة: لا بدّ أنه لا يمكن أن يُنسَب إليه البطء.

فلم يتكلم أمحوتب وخرج مسرعاً.

* * *

الفصل الثامن

عادت الأسرة من المحكمة المركزية حيث سُجّل عقد الشركة، وكان أفرادها جميعاً في نشوة الفرح ما عدا إيبي الذي استُثني من الشركة في اللحظة الأخيرة بحجة صغر سنه، ولذا كان عابس الوجه، ثم تغيّب عن المنزل متعمّداً. وكان أمحوتب مبتهجاً فأمر بإحضار جرة من النبيذ إلى الشرفة، ثم قال ليحموز وهو يربّت على كتفه: اشرب يا بنيّ وانسَ حزنك على زوجتك، ودعنا لا نفكر إلا في الأيام السعيدة المقبلة.

وشرب أمحوتب ويحموز وسوبك وحوري نخب تلك المناسبة السارة، ثم جاء نبأ بأن ثوراً قد سُرق، فهبّ الرجال الأربعة مسرعين إلى المزرعة للبحث عنه، وبعد ساعة تقريباً عاد يحموز إلى فناء الدار وكان متعباً يشكو من الحرّ، فذهب إلى حيث يوجد النبيذ فملأ منه كأساً برونزية ثم جلس في الشرفة يحتسيه، وبعد وقت وجيز جاء سوبك مسروراً ثم قال له: زدني من النبيذ لنشرب نخب مستقبلنا الذي ضمنّاه أخيراً. لا بدّ أن هذا يوم فرح لنا يا يحموز.

- حقاً، ستكون حياتنا أيسر من ذي قبل من جميع الوجوه.

- أنت ذو قصد في عواطفك دائماً يا يحموز.

ثم ضحك وتناول كأساً فتجرّع ما فيها ثم لعق شفتيه بلسانه وهو يضعها جانباً، وما لبث أن قال: والآن لنرَ هل سيظل أبونا على طُرقه العتيقة أم نستطيع إقناعه باتباع الطرق الحديثة.

- لو أنني مكانك لصبرت، ولكنك متسرع دائماً.

فابتسم سوبك لأخيه ابتسامة ودّ، فقد كان في ذروة السرور، فقال له مداعباً: أنت تعمل بالمثل القائل: من تأنّى نال ما تمنّى.

- هي الوسيلة المثلى في النهاية، ثم لا تنسَ أن أبانا كان شفيقاً بنا، فلا ينبغي لنا أن نأتي ما يُغضِبه.

فنظر سوبك إليه متسائلاً وقال: هل تحب أباك حقاً؟ كم أنت شخص ودود يا يحموز! أما أنا فلا أكترث لأيّ أحد ما عدا سوبك نفسه أحياه الله وأبقاه.

ثم تناول جرعة أخرى من النبيذ فقال له يحموز بعطف: كن حذراً، أنت لم تأكل إلا قليلاً اليوم، وأحياناً حين يشرب المرء نبيذاً...

غير أنه أمسك ولم يتمّ كلامه، فسأله سوبك: ماذا بك يا يحموز؟

- لا شيء، أشعر بألم مفاجئ، لكنه ليس خطراً.

ولكنه رفع يده فمسح جبينه الذي بدأ يتصبب منه العرق فقال له سوبك: أنت لا تبدو بحالة جيدة.

- قد كنت بخير حال إلى ما قبل هذه اللحظة.

فضحك سوبك وقال: ما دام النبيذ لم يسمّمه أحد.

ثم مدّ يده إلى إناء النبيذ، غير أن يده جمدت ومال جسمه إلى الأمام وقد أصابه تشنّج من الألم وقال بصوت واهن: يحموز، يحموز، أنا أيضاً...

فقام يحموز مسرعاً ليرى ما حدث لأخيه، ولكنه سقط على الأرض وانحنى جسده وصاح صيحة مكتومة، ثم اشتدّ الألم بسوبك فرفع صوته قائلاً: الغوث، اطلبوا طبيباً... الطبيب.

فجاءت حنة من داخل الدار تجري قائلة: هل ناديت؟ ماذا قلت؟ ماذا حدث؟!

وجاء الآخَرون على صياحها فوجدوا الأخوَين يئنّان من الألم، وقال يحموز بصوت ضعيف: النبيذ... سم... طبيب.

فصاحت حنة قائلة: شرّ جديد في الدار، هذا المنزل قد حلّت به اللعنة! أسرعوا، أسرعوا، ابعثوا رسولاً إلى المعبد ليحضر الكاهن مرسو؛ فهو طبيب بارع.

* * *

كان أمحوتب يذرع أرض القاعة الوسطى بالدار ذهاباً وجَيئة وقد اتسخ رداؤه الكتّاني الفخم ولم يستحمّ أو يغير ثيابه، وكان الألم والخوف باديَين على وجهه، وهناك من مؤخرة الدار كانت تصل إلى سمعه ولولة النساء وندبهن بعد الكارثة التي حلّت بالأسرة، وكانت حنة تحدوهنّ في النواح والندب.

ومن غرفة جانبية كان ينبعث صوت مرسو الكاهن الطبيب وهو منحنٍ فوق جسد يحموز الهامد، وقد تسللت رنزنب من

جناح النساء إلى القاعة الوسطى بعد أن جذبها ذلك الصوت، ثم مضت إلى باب الغرفة ووقفت به وقد غمرها شعور الطمأنينة من سماع ترتيل الكاهن وهو يدعو قائلاً: يا إيزيس يا عظيمة السحر، أطلقيني مما أنا فيه وخلصيني من أذى ميّت أو ميّتة وأنقذيني من كل عدوّ ذكر أو أنثى.

كانت رنزنب تردد الدعاء بقلبها قائلة: يا إيزيس العظيمة أنقذيه، أنقذي أخي يحموز.

وقالت تواصل تلك الخواطر وتخاطب الشخص الذي في ذهنها: لم يؤذِك يحموز قط يا نوفريت، وإذا كانت ساتيبي زوجته فهو لا يؤخَذ بجريرتها، وهو لم تكن له سيطرة عليها قط ولا لأحد سواه. ساتيبي التي آذتك ماتت، أفلا يكفيك ذلك؟ وسوبك قد مات أيضاً، ولم يفعل شيئاً غير أنه تكلم في حقك ولكنه لم يؤذك مطلقاً. يا إيزيس، لا تدعي يحموز يموت، أنقذيه من بغض نوفريت وانتقامها.

وكان أمحوتب يروح ويغدو شارد الذهن، فلما رأى ابنته غمره الحنان وقال لها: تعالي يا بنيتي العزيزة.

فجرت إليه وأحاطته بذراعيها قائلة: آه يا أبي! ماذا يقولون؟

- يقولون إن هناك أملاً في إنقاذ يحموز، أما سوبك، ولدي القوي الوسيم...

ثم غلبته العبرات فسكت، فقالت له ابنته: ألا يمكن عمل أيّ شيء؟

– لقد عملنا كل ما أمكننا عمله، فجرّعناه أدوية مقيئة وعصير بعض الأعشاب القوية، وجئناه بالتمائم ورُتّلت الأدعية، ولكن كل ذلك دون جدوى.

ارتفع صوت الكاهن الطبيب بدعاء أخير ثم خرج من الغرفة يمسح العرق من جبينه فقال له أمحوتب: ماذا هناك؟

فأجاب الكاهن بجد ووقار قائلاً: سيعيش ابنك. لقد ضعف جداً، ولكن أزمة السم قد ولّت، وقد بدأ تأثيره في الزوال.

ثم أردف الكاهن قائلاً: من حسن حظ يحموز أنه شرب من النبيذ المسمَّم أقلّ مما شرب أخوه، فيبدو أنه رشفه رشفاً، في حين تجرعه سوبك جرعة واحدة.

فتأوّه أمحوتب وقال: هذا هو الفرق بينهما، يحموز دائماً هيّاب حذر متريّث في كل شيء، حتى في أكله وشربه، أما سوبك فكان دائماً مفرطاً غير متبصّر مع الأسف.

ثم سأل أمحوتب الكاهن: هل كان النبيذ مسموماً حقاً؟

فأجابه هذا بقوله: لا شكّ في ذلك يا أمحوتب، فقد جرّب مساعداي بقايا النبيذ في بعض الحيوانات فماتت بعد حين.

– لكنني شربتُ من النبيذ نفسه قبلهما بساعة فلم يحدث لي شيء.

– لا شكّ أنه لم يكن قد وُضع فيه السم وقتئذ بل أُضيف إليه فيما بعد.

فضرب أمحوتب كفاً بكف ثم هزّ مقبضه قائلاً: لا يجرؤ أي كائن حيّ أن يُسمّم أبنائي تحت سقف بيتي هكذا، مثل هذا مُحال.

لا يجرؤ أي كائن حي على ذلك.

فاكتفى الكاهن بأن قال: أنت أدرى بذلك يا أمحوتب.

- هناك قصة أريد أن تسمعها.

ثم صفق بيديه فجاءه أحد العبيد ووقف أمامه فقال له: أحضر الغلام الراعي إلى هنا.

ولما انصرف العبد التفت إلى الكاهن وقال له: الغلام الراعي الذي بعثتُ في طلبه ليس كامل العقل، بل هو يفهم بصعوبة ما يُقال له، ولكنه مع هذا له عينان يرى بهما جيداً، أضف إلى ذلك أنه شديد الإخلاص ليحموز لأنه يعامله بلطف ويعطف عليه.

عاد الخادم ممسكاً بيده غلاماً نحيلاً شديد السمرة عليه ثياب رثّة والخوف مرتسم على وجهه، فالتفت أمحوتب إلى الغلام وقال له بلهجة شديدة: يجب أن تتكلم وأن تعيد الآن كل ما قلتَه لي.

فبدا التردد والوجل على وجه الغلام، وعبثاً حاول أمحوتب حمله على الكلام بالتهديد والوعيد، ثم جاءت إيزا تتوكأ على عصاها وقالت لابنها: أنت تخيفه يا بُنيّ.

ثم نادت رنزنب وناولتها بعض الثمار لتعطيها للغلام، فأعطته إياها، ثم اقتربت إيزا من الغلام وهو ما يزال يردّد بصره خائفاً حائراً بينهم، فأخذت بملاطفته لتشجعه على الكلام قائلة: لا تخَف شيئاً وقل لنا، ماذا رأيت حين مررت بباب الفناء أمس؟ هيا، ماذا رأيت؟

فهزّ الغلام رأسه ثم أطرق وهو يبتسم قائلاً: أين سيدي يحموز؟

فقال له الكاهن بلطف: سيدك يحموز هو الذي يريد منك أن تقصّ علينا ما تعرفه. لا تخف فلن يؤذيك أحد.

- سيدي يحموز رحيم بي، وأنا أفعل ما يريد.

ثم صمت، فبدا على أمحوتب أن صبره قد نفد، ولكن الكاهن نظر إليه نظرة تحثّه على الصبر، وفجأة بدأ الغلام يتكلم بشكل عصبي متقطع وهو ينظر حوله وكأنه يخشى أن يسمعه أحد لا يراه فقال: جريت بالعصا وراء الحمار الصغير الذي يحميه سيث والذي يهوى الأذى، فولج البوابة الكبيرة ودخل فناء الدار، فنظرتُ من خلال البوابة إلى الدار، ولم يكن أحد بالشرفة، ولكن كان هناك جرة النبيذ، ثم جاءت امرأة، وهي سيدة من نساء الدار، إلى الشرفة قادمة من داخل الدار، فمضت إلى جرة النبيذ، ثم بسطت كفّيها فوقها، وبعدئذ... بعدئذ عادت إلى الدار، نعم، أظن ذلك، لا أدري، لقد سمعتُ في تلك اللحظة وقع أقدام، فنظرت فإذا بسيدي يحموز قد عاد من الحقل، ولذا مضيت أبحث عن الحمار، ثم جاء سيدي يحموز إلى فناء الدار.

فصاح به أمحوتب: لماذا لم تحذره؟ لماذا لم تقُل شيئاً؟

فقال الغلام: لم أعلم أن في الأمر شيئاً، أنا لم أرَ إلا السيدة واقفة أمام جرة النبيذ باسطة فوقها كفّيها وهي تبتسم. لم أرَ شيئاً.

فسأله الكاهن: هل تعرف السيدة؟

- لا، لا بدّ أنها واحدة من سيدات الدار، وأنا لا أعرفهن؛ فأنا أرعى الغنم في طرف الحقل. كانت ترتدي ثوباً من كتّان مصبوغ.

فقال له الكاهن وهو يمعن النظر إليه: ربما كانت خادمة.

فهزّ الغلام رأسه وقال: لا، لم تكن خادمة، لقد كان على رأسها شعر مستعار وكانت تلبس حلياً، والخادمة لا تلبس حلياً.

فسأله أمحوتب: حليّ؟ أيّ نوع من الحليّ؟

فقال الغلام بلهفة وثقة وقد سيطر على ما كان به من خوف: ثلاثة خيوط من الخرز مع أسود ذهبية تتدلى منها.

فضربت إيزا بعصاها الأرض وصرخ أمحوتب صرخة مكتومة وقال له الكاهن: حذار أن تكون كاذباً أيها الغلام.

- لم أقُل إلاّ الحق.

وعندئذ صاح يحموز من الغرفة المجاورة حيث كان راقداً: ما هذه الضجة؟

فاندفع الغلام إلى غرفة يحموز وصاح به: سيدي يحموز، يريدون أن يعذبوني.

فأدار يحموز رأسه بصعوبة على الوسادة وقال: لا، لا تؤذوا هذا الغلام، إنه ساذج ولكنه صادق. عدوني بأنكم لن تؤذوه.

فقال أبوه: لا حاجة لأحد بإيذائه، فمن الواضح أنه قال ما يعرفه، وما أحسبه قد اخترعه. اذهب يا ولد، ولكن لا تعُد إلى المرعى بل ابق على مقربة من هنا فلعلنا نحتاج إليك مرة أخرى.

فقام الغلام ونظر إلى يحموز قائلاً: هل أنت مريض يا سيدي يحموز؟

فابتسم يحموز بضعف وقال: لا تخَف، أنا لن أموت، ولكن

أخرج الآن وافعل كما أُمرت.

فخرج الغلام مسروراً، ثم فحص الكاهن عينَي يحموز وتحسس مدى جريان الدم في عروقه، ثم نصح له بالنوم، ثم خرج مع الآخَرين إلى القاعة الوسطى، وهناك سأل الكاهن أمحوتب: أتعرف من تلك السيدة التي وصفها الغلام؟

فأومأ برأسه إيجاباً وبدا الشحوب في وجهه، وقالت رنزنب: نوفريت دون غيرها كانت ترتدي ثوباً من كتّان مصبوغ. لقد كان ذلك الثوب جديداً، وقد جاءت به من الشمال، غير أن ثيابها كلها قد دُفنت معها.

وقال أمحوتب: وخيوط الخرز الثلاثة والأسود الذهبية المدلاّة منها قد أعطيتها إياها، وليس بالدار حليّ مشابهة لها، فقد كانت حلياً غالية وغير مألوفة، وجميع حليها دُفنَت معها، ما عدا قلادة العقيق الأحمر.

ثم رفع يديه فقال: ما هذا الاضطهاد؟! ما هذه النقمة؟! أيليق ذلك مِن التي كنتُ أعاملها أحسن معاملة وأحيطها بكل مظاهر التكريم ودفنتها بالمراسم الجديرة بها ولم أضنّ بنفقة في سبيل ذلك؟ لماذا إذن ترجع من عالَم الموتى لتضطهدني أنا وعائلتي؟

فقال الكاهن مرسو بجد: يبدو لي أنها لا تريد السوء بك، فالنبيذ الذي شربتَه لم يكن به شيء، فأيّ أفراد الأسرة آذى زوجتك؟

- لقد ماتت التي آذتها أيضاً.

- أتقصد زوجة ابنك يحموز؟

- نعم.

وصمت أمحوتب لحظة ثم قال: ما الذي يجب عمله يا أيها المبجَّل؟ كيف نقاوم هذا الحقد؟ لقد كان يوم نحس عندما جئتُ بتلك المرأة إلى بيتي.

فقالت كيت بصوت عميق وقد ظهرت عند الباب الموصّل إلى جناح النساء: أجل، كان يوم نحس حقاً.

وكانت عيناها مملوءتين بالدموع وملامح وجهها تدلّ على القوة والعزيمة، ثم عادت تقول بصوت أجش ينبئ عن الغضب: لقد كان يوم نحس حقاً يوم جئتَنا بنوفريت يا أمحوتب لكي تقضي على أبرع أبنائك وأجملهم. لقد قضت على ساتيبي، ثم سمّمت سوبك، وأوشك يحموز أن يلقى حتفه أيضاً على يدَيها. تُرى من سيكون ضحيتها التالية؟ أتُراها تُبقي على الأطفال وهي التي ضربت طفلتي عنخ؟ يجب أن تفعل شيئاً يا أمحوتب.

فردّد قولها: أجل، يجب أن أفعل شيئاً.

ثم استدارت وذهبت، فتمتم أمحوتب قائلاً: كيت امرأة مخلصة لأولادها وزوجة تعرف واجباتها نحو زوجها، ولكن سلوكها ليس كما يجب نحو رب الأسرة أحياناً. وبالطبع سأسامحها في مثل هذه الظروف؛ فنحن جميعاً لسنا في حالتنا الطبيعية ولا نكاد نعرف ماذا نحن فاعلون.

وهنا قالت إيزا: بعضنا يعرف ما هو فاعله.

فنظر إليها أمحوتب نظرة انزعاج وتأهّب الكاهن للخروج، فخرج أمحوتب معه إلى الشرفة يتلقّى منه التعليمات لأجل العناية

بالمريض، وبقيَت رنزنب في مكانها وقد نظرت إلى جدتها نظرة تساؤل ثم قالت لها: فيمَ كنتِ تفكّرين يا جدتي؟

- هذه الدار تحدث فيها أشياء غريبة، ولا بد لأحد منّا أن يفكر.

- هذه أشياء فظيعة تخيفني.

- وتخيفني أنا أيضاً، ولكن لسبب آخَر.

ثم أزاحت شعرها المستعار بحركتها المعتادة فقالت لها رنزنب: ولكن يحموز سينجو من الموت، سيعيش.

فأومأت إيزا برأسها موافقة وقالت: قد ينجو يحموز لأن طبيباً بارعاً أدركه في الوقت المناسب، وقد لا يكون حسن الحظ هكذا دائماً.

فسألتها رنزنب: أتظنين أن حوادث أخرى ستقع هنا؟

فأجابتها العجوز: أظن أن يحموز وأنت وإيبي وربما كيت أيضاً يجب أن تكونوا على حذر ممّا تأكلونه وتشربونه، ويجب أن يجرّبه أولاً أحد العبيد.

- وأنتِ يا جدتي؟

فردت إيزا بابتسامة ساخرة قائلة: أنا امرأة عجوز يا رنزنب، وأحب الحياة كما لا يحبها إلا العجائز، وأستمتع بكل ساعة فيها وبكل دقيقة باقية لي، فأنا دونكم جميعاً أمامي أحسن الفرص للحياة لأنني سأكون أكثر حذراً من أيّ أحد منكم.

- وأبي؟ لا شكّ أن نوفريت لا تريد السوء بأبي.

- أبوك؟ لا أدري؛ فأنا لست واثقة بعدُ، ولكن غداً حينما أكون قد قلبت الأمر على وجوهه فسوف... يجب أن أتحدث مرة أخرى مع ذلك الغلام الراعي، فإن في قصته شيئاً غريباً.

وقطعت كلامها عابسة ثم تنهدت وقامت مستندة إلى عصاها عائدة إلى غرفتها، أما رنزنب فقد ذهبَت إلى أخيها يحموز الذي كان نائماً، فدخلت غرفته بهدوء، وبعد لحظة ذهبت مترددة إلى الجناح الخاص بكيت، فوقفت برهة بالباب دون أن يلحظها أحد، وكانت كيت وقتئذ تغني لأحد أطفالها كي ينام، وكان وجهها ينمّ عن السكينة، وبدا عليها أنها قد عادت إلى حالتها الطبيعية، حتى إن رنزنب سألت نفسها: هل كانت المأساة التي حدثت في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة حلماً من الأحلام.

ثم عادت رنزنب ببطء إلى جناحها، فوجدت على المنضدة أدوات الزينة الخاصة بها ومعها علبة الحليّ الصغيرة التي كانت لنوفريت، فأخذت رنزنب العلبة ووقفت تنظر إليها وهي في يدها، ثم أخذت تقول لنفسها: لقد لمسَتها نوفريت وأمسكَتها، وهي تخصّها.

فعاد شعور الشفقة يغمرها ومعه شعور عجيب بالفهم والإدراك من جديد. لقد كانت نوفريت بائسة، لعلّها حين كانت تمسك هذه العلبة بيدها قد حولت شقاءها حقداً وبغضاً للأسرة كلها، والآن بعد أن ماتت لم يضعف بغضها لهم ولا تزال تريد الانتقام.

وبحركة لا إرادية حلّت الخيط من حول زرَّيها وفتحَت العلبة، وكانت فيها حبات العقيق والخرز المكسور، وشيء آخر... وقد

دقّ قلبها دقاً عنيفاً وهي تُخرِج من العلبة قلادة من حبات ذهبية تدلّت منها أسود من الذهب!

* * *

الفصل التاسع

فزعت رنزنب حين وجدت القلادة، فأعادتها فوراً إلى العلبة وأغلقتها وربطت الخيط حول زرَّيها، ثم هدتها غريزتها إلى أن تُخفي ما وجدته عن الجميع، حتى إنها نظرت خلفها لتستوثق من أن أحداً لم يرَها.

لم تنم رنزنب تلك الليلة إلا لماماً، وما إن طلع الفجر حتى كانت قد اعتزمت أن تكشف أمر تلك القلادة لإيمانها بأنها لا تستطيع أن تحمل وحدها عبء هذا الكشف الرهيب، فكان أول ما فعلته في الصباح أن أخرجت القلادة ذات الأسود الذهبية من العلبة فخبّأتها في ثنايا ثوبها، وكانت قد قررت أن تبحث عن حوري لتُطلعه على أمر القلادة ذات الأسود الذهبية، ولكنه في ذلك الوقت لا بدّ أن يكون مشغولاً مع الكهنة في معبد إيزيس، ومن العبث أن تحاول لقاءه قبل أن يفرغ من مهمته.

ثم حدثتها نفسها بأن تلجأ إلى أبيها، ولكنها هزّت رأسها رافضة هذا الخاطر، فما كانت تعتقده وهي طفلة في قدرة أبيها قد زال، وقد أدركت أنه في وقت الشدة ينتابه الضعف والوهن، أما يحموز فهو راقد مريض، ولولا مرضه للجأت إليه وأخبرته بالأمر، وإن كانت تشك في أنه سيفيدها بأيّ نصح عملي، بل لعله كان

يصرّ على عرض الأمر على أبيه، إلا أنها لم تكن تريد أن تلتمس رأي أحد غير حوري؛ فهو عادة يعرف ما ينبغي عمله، وأكبر الظن أنه سيأخذ منها القلادة فيأخذ معها ما بها من قلق وحيرة، وسينظر إليها بعينيه اللتين تشعّان جداً وعطفاً، وحينئذ ستشعر هي بأن همومها قد انتهت.

لاح لها أن تخبر كيت، ولكنها ما زالت متعبة، فضلاً عن أنها غبية. ولاح لها أن تخبر إيزا، ثم آثرت أن تخبر كامني لأنها ستستطيع عندئذ أن تراقب وجهه جيداً فترى كيف يفكر وكيف تتحول ملامحه من التحدي المرح إلى الاهتمام ثم إلى الخوف من أجلها. ولكن لماذا يكون ذلك من أجلها هي؟ أليس من الجائز أن يكون من أجل صاحبة تلك القلادة؟ نفسها تحدثها كثيراً بأن نوفريت وكامني كانا على علاقة وثيقة أكثر مما كانا يظهران.

وهنا شعرت بالاضطراب فلم تستطع متابعة التفكير. أجل، عينا كامني ليستا كعينَي حوري تنبئان عن الأمن والشفقة، ولكنهما عينان تشعّان بالطلب والتحدي. ثم شعرت بالدم يصبغ خدَّيها من هذه الخواطر، ولكنها اعتزمت ألاّ تخبر كامني بأمر قلادة نوفريت. ثم عادت فآثرت أن تُخبر إيزا، فقد أثارت إعجابها أمس، ثم هي -رغم بلوغها الكبر- تقدّر الوقائع تقديراً عملياً صحيحاً لا يُتاح لغيرها من أفراد الأسرة.

لم تكَد رنزنب تخبر جدتها بأمر القلادة حتى نظرت هذه حولها ووضعت إصبعاً على شفتيها محذرة إياها خطر الاستمرار في هذا الحديث، ثم أخرجت رنزنب القلادة من طيّات ثوبها فوضعتها في يد إيزا، فأدنَتها من عينيها ثم خبأتها في ثنايا ثيابها وقالت بصوت خافت: لا تتحدثي عنها بعد ذلك؛ فمَن يتكلم في هذه الدار تسمعه

مئات الآذان. لقد رقدتُ معظم الليلة ساهرة أفكر في أشياء كثيرة لا بدّ أن نقوم بها.

- لقد خرج أبي وحوري إلى معبد إيزيس ليتباحثا مع الكاهن مرسو بشأن صياغة الالتماس الذي سيقدَّم لأمّي كي تتدخل لحمايتنا.

- أنا أعرف ذلك. حسناً، لندع أباك يشغل نفسه بأرواح الموتى، أما أنا فأفكاري تحوم حول أشياء من هذا العالَم، ولكن عندما يعود حوري فاحضريه إليّ؛ هناك أمور يجب أن تُقال وأن تُبحَث وأنا أثق به.

- حوري سيعرف ما ينبغي عمله.

- أنت كثيراً ما تذهبين إلى المقبرة، أليس كذلك؟

فأومأت رنزنب برأسها موافقة ثم قالت: بلى، فأنا أستمتع بالنظر إلى النيل من هناك، وأرى مصر، وأرى الرمال وكيف يتغير لونها، وأرى الصخور كذلك، وهناك أترك لنفسي العنان ولا يقطع حوري سير تفكيري، وأحياناً أنظر فأراه يرقبني فيبتسم كلانا. أجل، أنا أحس بالسعادة هناك.

فقالت لها جدتها: ما أسعدك يا عزيزتي! لقد وجدتِ السعادة المستقرة في داخل الإنسان.

- وأنت يا جدتي؟ ألم تكن حياتك سعيدة؟

- معظمها، ولكنني بلغتُ من الكبر عتيّاً الآن فصرتُ أجلس وحدي كثيراً وأمشي بمشقة. هذه الأشياء بقيَت لي بعد أن ذهب الكثير ومات معظم الأبناء الذين أحببتهم، وقد كان أبوك أحمق

دائماً، وكنتُ أحبه حين كان طفلاً يحبو، ولكنه يغضبني بتظاهره بالقوة والمعرفة الآن، كما أحبك أنتِ من بين أحفادي. بمناسبة الكلام عن الأحفاد، أين إيبي؟ أنا لم أرَه أمس ولا اليوم.

- إنه مشغول بالإشراف على مخازن الغلال.

- سوف يجد في ذلك إرضاء لغروره، وسوف يختال مزهواً بخطر شأنه. أخبريه أن يأتي إليّ عندما يعود إلى البيت لتناول الطعام، وفيما عدا ذلك فعليك بالسكوت والكتمان.

* * *

وقف إيبي بباب غرفة جدته مبتسماً متغطرساً وقد وضع زهرة بين أسنانه البيضاء وبدا عليه الغرور والابتهاج ثم قال لها: هل طلبتِني يا جدتي؟

- نعم، أريد أن تسمح لي بلحظة من وقتك الثمين.

فلم يدرك إيبي ما في لهجتها من سخرية وقال: الحقّ أنني مشغول جداً اليوم؛ فعليّ أن أُشرف على كل شيء.

- صغار بنات آوى عالية الصياح.

- لا شكّ أن لديكِ ما تقولينه لي غير هذا.

- أجل، فعندي الكثير الذي أريد أن أقوله لك، فالبيت في حداد، وجثمان أخيك سوبك لا يزال في أيدي المحنّطين، ولكنني أرى وجهك مستبشراً وكأننا في يوم عيد.

فقطّب وجهه ثم قال: أنت لست مرائية يا إيزا، أفتريدينني أن أكون مرائياً؟ أنت تعلمين علم اليقين أنه لم يكن ثمة حب

يجمع بيني وبين أخي، فقد كان يفعل كل ما يستطيع لمضايقتي وإزعاجي، وكان يعاملني وكأنني طفل ويعهد إليّ بالمهام الصغيرة المُذِلّة في الحقل، وكثيراً ما كان يسخر منّي، وعندما أراد أبي أن يشركنا نحن أبناءه الثلاثة معه أغراه بألاّ يفعل.

- لماذا تعتقد أن أخاك هو الذي أغراه بذلك؟

- لقد قال كامني ذلك لي.

فرفعت إيزا حاجبَيها وأمالت شعرها المستعار جانباً ثم قالت: كامني؟ كامني حقاً؟ هذا يهمّني.

فعاد إيبي يقول: نعم، لقد قال لي كامني إنه علم بذلك من حنة، وهذه لا يخفى عليها شيء كما نعلم جميعاً.

- ومع هذا فقد أخطأَت حنة في هذا الاتّهام. لا شكّ أن يحموز وسوبك كليهما كانا يريان أنك أصغر سناً من أن تدخل في الشركة، ولكنني أنا التي أقنعت أباك بعدم إدخالك فيها.

فنظر إليها الفتى بدهشة ثم قال: أنتِ يا جدتي؟! ولماذا فعلت ذلك بي؟ وما شأنك به؟

- شؤون أسرتي هي شؤوني.

- هل اقتنع أبي برأيك؟

- لم يقتنع في البداية، ولكنني سألقّنك درساً يا طفلي الجميل. اعلم أن النساء تسعَين بالدوران بالمراوغة، وهنّ يتعلمن كيف يستغللن ضعف الرجال، إن لم يكن ذلك من غرائزهن.

فحملق إيبي إليها هنيهة ثم ضحك وقال لها: أنتِ ماكرة

برغم كبر سنك يا إيزا. لا شكّ أنك وأنا قد انفردنا بالذكاء في هذه الأسرة.

- سأكون حذرة، وأنصحك بأن تكون على حذر أنت أيضاً، فقد مات أحد أخوَيك وأوشك الثاني أن يموت، وأنت أيضاً ربما أعدّت لك نوفريت النهاية نفسها.

فضحك إيبي بازدراء قائلاً: أنا لا أخشى ذلك.

فسألته جدته: ماذا يدور بخلدك يا إيبي؟

فأجاب بقوله: أنا لي رأيي في ذلك، وأرى أنه لا يزعجني أيّ شيء يمكن أن تصنعه روحها.

وعندئذٍ ارتفعت صيحة من خلفه، فالتفت فإذا بحنة قد جاءت تقول: أيها الغلام الأحمق، أيها الطفل الطائش... أنت تتحدى الأموات! أبعدَ كل ما ذقناه منها لا زلت تصر على ألاّ تحمل أية تميمة للوقاية؟

فضحك إيبي قائلاً: وقاية؟ أنا الذي سأقي نفسي بنفسي. ابتعدي عن طريقي فأمامي عمل يجب أن أؤديه يا حنة.

ودفع حنة بيده فأزاحها جانباً ثم أسرع خارجاً من الغرفة، فأخذت حنة تنوح وتندب، ولكن إيزا أسكتتها قائلة: أصغي إليّ يا حنة، قد يعرف إيبي ما هو فاعله وقد لا يعرف فأسلوبه غريب جداً، ولكن اصدقيني القول: هل قلتِ لكامني إن سوبك هو الذي حرّض أباه على عدم إدخال إيبي في الشركة؟

- عندي من العمل المتواصل في المنزل ما لا يترك لي وقتاً لنشر أخبار بين الناس، ولا سيما كامني بالذات.

- حقاً، ولكن تذكّري يا حنة أن اللسان يكون أحياناً سلاحاً خطراً، وقد يكون سبباً للموت، وقد يُحدِث أكثر من وفاة واحدة. ولعلّ لسانك يا حنة لم يكن سبباً في موت أحد؟

- لماذا تقولين ذلك لي أنا يا إيزا؟ وما الذي يجول بخاطرك؟ أنا لا أقول لأحد كلمة أخشى أن يسمعها الناس جميعاً، فأنا مخلصة للأسرة كلها، وأودّ لو أفدي كل فرد من أفرادها بنفسي، ولكنهم لا يقدّرون إخلاصي. لقد وعدت أمهم العزيزة...

فقاطعت إيزا كلامها قائلة: ها قد جاء السمّان مطهوّاً بالكراث والكرفس. كم هو شهيّ الرائحة! والآن مادُمتِ بهذا الإخلاص لنا فهيّا تذوّقيه أولاً حتى استوثق من أنه ليس مسمَّماً.

فارتاعت حنة قائلة: مسمَّم؟! كيف تقولين ذلك؟ لقد طُهي في مطبخ الدار، فكيف يُسمَّم؟

- لا بدّ أن يذوقه أحد قبل أن آكله. هيا، افتحي فمك. لذيذ، أليس كذلك؟ أراك مصفرّة الوجه، ألم تعجبك هذه الطّرفة؟ ما أظنها أعجبتك.

قالتها وأطلقت ضحكة ساخرة عالية، ثم ما لبثت أن استعادت سمت الجدّ وأقبلت على لون الطعام الذي تحبه.

* * *

الفصل العاشر

انتهى التشاور في المعبد ووُضع نص الالتماس ثم عُدّل، وقد قام بوضعه حوري واثنان من كتبة المعبد، وأومأ الكاهن مرسو برأسه موافقاً وقال: لقد كتب بأسلوب حسن وأظن أنه لم يترك شيئاً.

ثم نهض أمحوتب قائلاً: شكراً لك أيها المبجَّل. ستصلك هبتي قبل غروب شمس غد، وهي مكوَّنة من ماشية وزيت وكتّان. ألا نحدد اليوم الذي نحتفل فيه بوضع وعاء هذا الخطاب في غرفة الهبات بالمقبرة؟

فقال الكاهن: ليكن بعد ثلاثة أيام.

- كما تشاء، وعسى ألاّ يحدث سوء جديد.

- أنا أقدّر قلقك يا أمحوتب، ولكن لا تخَف؛ فروح عشايت سوف تلبّي هذا الالتماس.

فأومأ أمحوتب موافقاً ثم قال: عسى أن يكون ذلك وفق إرادة إيزيس. شكراً لك يا مرسو، وشكراً لك على عنايتك بابني يحموز أيضاً.

ثم التفت إلى حوري فقال له: هيا بنا، أمامنا أعمال كثيرة في المنزل. أنا أعلم أن عشايت الفاضلة لن تخذل زوجها المنكوب.

* * *

دخل حوري صحن الدار حاملاً لفائف ورق البردي، وكانت رنزنب تنتظره، فجاءت من البحيرة تجري صوبه وتناديه قائلة: حوري، حوري.

فوقف حتى أدركته فقال لها: ماذا تريدين يا رنزنب؟

- تعالَ معي إلى جدتي. لقد كانت تنتظرك وتريدك أن تذهب إليها.

- حسناً، ولكن أبوك قد يكون في حاجة إليّ الآن؟

- إنه مشغول بالحديث مع إيبي الآن.

- إذن سأضع هذه اللفائف جانباً وأُنجز بعض الشؤون العاجلة ثم آتي معك.

بدا على إيزا السرور حين جاءها حوري مع رنزنب، فقالت لها رنزنب: هذا حوري يا جدتي. لقد أحضرته إليك.

- حسناً، هل الجو حسن في الخارج؟

فأجابتها متعجبة: أظن ذلك!

- إذن أعطيني عصاي، فسأمشي في صحن الدار قليلاً.

وكانت إيزا لا تغادر المنزل إلا نادراً، ولهذا دُهشت رنزنب، ثم قادت جدتها وهي متأبطة ذراعها فعبر ثلاثتهم القاعة الوسطى

إلى السقيفة ثم قالت لها: هل نجلس هنا يا جدتي؟

- لا يا طفلتي، بل نمشي إلى البحيرة.

كانت مشيتها بطيئة، ولكنها برغم عرجها كانت قوية لا يبدو عليها التعب، ثم نظرت حولها فاختارت بقعة على شاطئ البحيرة نمَت فيها الأزهار وقامت بها شجرة جميز ظليلة، وعندما جلست قالت بارتياح: ها هنا نستطيع أن نجلس وأن نتكلم دون أن يسمعنا أحد.

فقال لها حوري: أنت حكيمة يا إيزا.

- ما سنقوله هنا الآن يجب أن يبقى في طيّ الكتمان لا يعلم به أحد غيرنا، وأنا أثق بك يا حوري؛ فأنت معنا منذ كنتَ طفلاً صغيراً، وقد عهدنا فيك دائماً الإخلاص والعقل والكتمان، ورنزنب هي أحب أحفادي إلى قلبي ولا أريد أن ينالها أيّ أذى.

- لن يصيبها أذى.

ولم يرفع حوري صوته وهو يقول ذلك، لكن لهجته بعثت الطمأنينة في قلب إيزا فقالت له: أصبتَ يا حوري، أنت تقول ذلك بهدوء ورزانة، شأنك شأن الرجل الذي يعني ويعي ما يقوله. الآن أخبرني، ماذا فعلتم اليوم؟

فذكر لها حوري ما تمّ من كتابة صيغة الالتماس، فأصغت إليه باهتمام حتى فرغ من حديثه ثم قالت: حسناً، والآن أصغ إليّ يا حوري وانظر إلى هذه.

ثم أخرجت من طيات ثوبها القلادة ذات الأسود الذهبية وأعطته إياها، ثم التفتت إلى حفيدتها قائلة لها: أخبريه أين وجدتِ

هذه يا عزيزتي.

ولمّا انتهت الفتاة من قصّتها عادت إيزا فسألته: ما رأيك يا حوري؟

فسكت هنيهة ثم قال: أنت كبيرة السن ذات حكمة، فما رأيك أنت؟

- يعجبني منك أنك لا تعجل بالحكم على الأمور إلا إذا كانت مؤيَّدة بالوقائع. لقد كنتَ تعلم منذ البداية كيف لقيَت نوفريت حتفها.

- لكنني لم أكن على يقين من هذا الأمر.

- هذا صحيح؛ فليس لدينا ما يجعلنا على يقين منه حتى الآن، ولكن ها هنا على البحيرة وبيننا نحن الثلاثة يمكن أن نذكر ما أثار شكوكنا ثم لا نذكره ثانية. والآن عندي أكثر من تعليل للمآسي التي وقعت، فمثلاً قد يكون الغلام الراعي صادقاً فيما رآه، أعني أن ما رآه كان شبح نوفريت حقاً وقد عاد من عالَم الموتى للانتقام لنفسها زيادة على انتقامها بإيجاد الحزن والحداد في أسرتنا، والكهنة يؤيّدون إمكان وقوع هذا، ونحن نعلم أن الأرواح الشريرة تسبّب المرض أحياناً، ولكن يبدو لي أن هناك احتمالات أخرى؛ فأنا لا أميل إلى اعتقاد صحة ما يقوله الكهنة.

- وما هذه الاحتمالات؟

- لنفرض أن نوفريت قُتلت بيد ساتيبي، وأن ساتيبي ظهر لها شبح نوفريت بعد فترة من موتها، فأدّى بها الخوف وذكرى الجُرم الذي ارتكبته إلى أن سقطت تلك السقطة المميتة، هذا

واضح وضوحاً كافياً. ثم لنفرض أن أحداً من الناس أراد أن يقضي على يحموز وسوبك بعد ذلك، فاعتمد على تصديق الجميع خرافة ظهور شبح نوفريت لكي ينسب إليه ما سوف يقع من جرم جديد.

وهنا ابتدرت الفتاة جدتها سائلة: لكن يا جدتي مَن ذا الذي يريد أن يقتل يحموز أو سوبك؟

- لا أحد من الخدم؛ فهم لا يجرؤون على ذلك، وهذا يؤدي إلى تضييق دائرة الشك أمامنا.

- أتعنين أن يكون المتهم واحداً منّا؟

- اسألي حوري، فأنتِ ترينه لا يعترض على ما قلته.

فالتفتت رنزنب إليه متسائلة، لكنه اكتفى بأن هزّ رأسه وقال: أنت صغيرة السن كثيرة الثقة بالناس يا رنزنب، وتظنين أن كل إنسان تعرفينه وتحبينه هو في الحقيقة كما يظهر لك، ولا تعرفين خبايا النفس البشرية والشر الذي يمكن أن تُكنّه.

فعادت تسأله: لكن من هو؟ ألا تصرّح لي باسم مَن يمكن أن يوجَّه إليه مثل هذا الاتّهام؟

فقالت لها جدتها: لنعُد إلى تلك القصة التي قصّها الغلام الراعي. لقد رأى امرأة في ثوب من الكتّان المصبوغ تلبس قلادة نوفريت، فإذا لم يكن ذلك شبحاً فمعنى ذلك أنه أبصر امرأة تحاول أن تظهر في هيئة نوفريت، فربما كانت كيت، وربما كانت حنة، وربما كنت أنت يا رنزنب، أو لعلها كانت إنساناً آخَر مرتدياً ثياباً وشعراً مستعاراً لامرأة. على أية حال هذه فروض واحتمالات لا

أكثر، فاصمتي ودعيني أتكلم.

ثم التفتت إلى حوري وأكملت قائلة: أما الاحتمال الآخر فهو أنّ الغلام كان كاذباً وأنه قصّ قصّة لقّنه إياها أحد من الناس، وفي تلك الحالة لا بدّ أن يكون هذا الشخص ممّن له سلطان على الغلام، ويمكن القول بأن الغلام ربما كان قد نسي أو حرّف شيئاً مما أُمر بأن يذكره لضعف عقله، ولن نعرف الحقيقة الآن لأن الغلام قد قُتل، ومقتله نفسه يدعو إلى التأمل؛ فهو يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن الغلام قد قصّ قصّة أُمليَت عليه، ولو أنه حُقّق معه تحقيقاً دقيقاً، كما كان مقرراً أن يحدث اليوم، فستنهار قصته، وكان من السهل إظهار ما فيها من كذب بقليل من الجهد والصبر.

فسألها حوري: إذن أنت تظنين أن بيننا قاتلاً؟

- نعم. ما رأيك أنت؟

- أنا أظن ذلك أيضاً.

فنقلت رنزنب بصرها بينهما في خوف ظاهر في حين قال حوري: ولكن البواعث ليست واضحة أمامي.

فقالت إيزا: أنا أوافقك على ذلك، وهذا لا يزعجني، ولا أدري مَن المهدَّد بالخطر بعد ذلك.

فقالت رنزنب بلهجة الشكّ: ولكن أليس غريباً أن يكون القاتل واحداً منّا؟

فهزّت إيزا رأسها آسفة ثم قالت: أجل يا رنزنب، هو واحد منّا، فهو إما أن يكون حنة أو كيت أو إيبي أو كامني أو أمحوتب

نفسه، أجل، أو إيزا أو حوري.

ثم ابتسمت وأردفت: وربما رنزنب.

فقال حوري: صدقت يا إيزا، يجب أن نُدخِل أنفسنا في الدائرة أيضاً.

فسألتها رنزنب: ولكن لماذا؟

فقالت العجوز: لو علمنا السبب لعلمنا كلّ الحقيقة، لكننا نستطيع أن نسير إليها على ضوء ما حدث، ونحن نعلم أن سوبك لم يلبث إلا أن لحق بيحموز في الحال وهو يحتسي النبيذ، فمن المؤكَّد إذن أن الجاني، أياً كان، أراد أن يقتل يحموز، ولكن ليس من المؤكَّد أنه أراد قتل سوبك أيضاً.

فقالت الفتاة متسائلة: ومن الذي يريد أن يقضي على يحموز؟ يحموز ليس له أعداء؛ فهو هادئ شفيق دائماً.

فقال حوري: إذن فمن الواضح أن الباعث لم يكن هو البغض والحقد، لأن يحموز ليس من طراز الرجال الذين يعادون الناس.

فقالت إيزا: نعم، الباعث أكثر غموضاً من ذلك، فهو إمّا أن يكون عداوة للأسرة كلها، أو أن يكون الجشع الذي تحذّرنا منه وصايا بتاحوتب إذ يقول: «الجشع جماع الشرور والآثام». هذا ما أراه.

فقال حوري: أنا أفهم ما تعنينه، ولكن لكي نصل إلى نتيجة يجب أن نتنبأ بالمستقبل.

- إذن صوّر لنا ما يمكن أن يحدث يا حوري.

فصمت حوري لحظة ثم قال: لو أن يحموز مات كما أُريدَ له، فمَن الذين يفيدون من موته؟ لا شكّ أنهم شركاؤه في ثروة أمحوتب، وفي مقدمتهم سوبك وإيبي، وصحيح أن بعض الميراث كان سينتقل إلى أبناء يحموز نفسه، ولكن إدارة الأملاك كان سيُعهد بها إلى أيدي غيرهم.

ثم صمت قليلاً قبل أن يستطرد قائلاً: ولا شكّ أن سوبك كان سيصبح أكبر مستفيد من موت يحموز حين يُعهَد إليه بالقيام بمهامّ كاهن كا في غياب أمحوتب أو بعد وفاته، ولكن سوبك لا يمكن أن يكون القاتل لأنه هو نفسه قد شرب من النبيذ المسمَّم جرعات كبيرة قضت عليه، لذا فأنا أرى أن وفاة يحموز وسوبك لا تفيد إلا شخصاً واحداً هو في الوقت الحاضر كما أظن، وهو إيبي دون غيره.

فقالت إيزا: أنا أوافقك على ذلك، ولكن إيبي -كما نعلم جميعاً- ما زال صغير السن، كما أنه قليل الصبر، ويعتقد أن تنفيذ رغباته أهم شيء في الوجود، ولا شكّ أنه يُكنّ الحقد والضغينة لأخوَيه ويظنّ أنه ظُلم إذ لم يدخل معهما في الشركة، ومن الظاهر أيضاً أن كامني قال له أشياء بعيدة عن الحكمة.

فصاحت رنزنب متعجبة: كامني؟!

ثم احمرّت وجنتاها من الخجل وعضّت شفتيها، فالتفت إليها حوري ونظر إليها تلك النظرة النافذة الجادة التي كثيراً ما أحرجتها، وعندئذ مدّت إيزا عنقها إلى الأمام قائلة: نعم، كامني. أما إذا كانت حنة هي التي أوحت إليه أو لم توح إليه فهذا شيء آخَر. أضف إلى ذلك أن إيبي طَموح متكبر كاره لَسلطان أخوَيه،

يظن نفسه أذكى أفراد الأسرة كما ذكر لي.

فسألها حوري: هل قال لك ذلك؟

- نعم، وقد جاملني بأن أشركني معه في ميزة الذكاء هذه.

وهنا قالت رنزنب بلهجة الشك: أتظنان أن إيبي قد تعمّد أن يقتل يحموز وسوبك بالسمّ؟

فقالت إيزا: هذا مجرد احتمال، فنحن نسرد فروضاً لا أكثر، وليست أمامنا براهين، ومنذ بداية العالَم كان هناك رجال قتلوا إخوتهم وهم يعلمون أن الآلهة تكره مثل هذا القتل، لكنهم كانوا مدفوعين بالطمع والبغضاء، وإذا كان إيبي قد فعل شيئاً من هذا القبيل فلن نجد دليلاً عليه لأنه بارع حقاً.

فأومأ حوري برأسه موافقاً، ثم استطردت إيزا قائلة: هذه كلها فروض كما قلتُ لكما، وعلى هذا الأساس سأمضي في بحث موقف كل فرد من أهل هذه الدار، وسأُخرج الخدم من دائرة البحث لأنني لا أعتقد أن أحداً منهم يجرؤ على مثل هذه الجرائم، ولكنني لن أُخرج حنة.

فقالت رنزنب: حنة؟ ولكنها مخلصة لكل فرد منّا، ولا تجرؤ أن تفعل ذلك.

فقالت إيزا: من السهل إظهار الأكاذيب بمظهر الحقائق. لقد عرفتُ حنة منذ سنوات عديدة، فحينما جاءت مع أمك إلى المنزل كانت شابّة فقيرة بائسة، وكانت لهذا تدّعي الإخلاص لها، ولكنني راقبتها وهي تنظر إلى أمك عندما كانت تتنقل في أرجاء الدار، وأؤكد لكِ يا رنزنب أن نظراتها لم تكن تنمّ عن حب وإخلاص بل

كان يملؤها الحقد والحسد، ولذلك تريننى أرتاب فيما تزعمه من الإخلاص لكم جميعاً.

عندئذ قال حوري: أخبريني يا رنزنب، أتشعرين بمحبة حنة؟

- لا، أنا لا أحبها، وقد كان ضميري يؤنبني على ذلك دائماً.

ثم تنهدت وقالت: لكن أبي يثق بها.

فقالت إيزا: أمحوتب أحمق، وحنة تتملقه، ولكن ربما تكون مخلصة له حقاً، وأنا أظنها كذلك أحياناً، ولكنها لا تخلص لأيّ أحد آخَر في هذه الدار.

فأومأ حوري برأسه موافقاً ثم قال: هناك فساد ينبعث من الداخل، وقد حدثتُ رنزنب عنه يوماً.

فأجابته: الواقع أنني لم أفهم ما قلته يومئذٍ، ولكنني بدأت أحسن الفهم الآن. لقد بدأ الفساد بقدوم نوفريت، وكنت حينذاك أرى أن كلّ فرد هنا لم يعد كما كنت أعهده، فروّعني هذا التغير، والآن أشعر أن هذا يملؤني رعباً.

ثم قالت إيزا: هناك كيت أيضاً...

فقاطعتها رنزنب قائلة: كيت؟! هذا شيء غير معقول! بل يستحيل أن تقتل كيت زوجها سوبك.

- لا يوجد شيء غير معقول، على الأقل هذا ما تعلّمتُه في حياتي، فكيت امرأة قاسية جداً، وهي تعيش في عالَم صغير مكوَّن

منها ومن أطفالها، وليس بعيداً أن يلوح لها أن في إزاحة يحموز من العالَم ما يزيد من ثروة أبنائها، فإذا زال يحموز من الوجود فأمحوتب لن يجد بدّاً من الاعتماد على سوبك. أجل، أعتقد أن كيت في غباوتها قد تتصور المسألة على هذا النحو.

فشعرت رنزنب برجفة تعتري جسدها فصمتت قليلاً ثم قالت: ولكن ألا يمكن أن تدرك كيت أن سوبك قد يعود إلى البيت فيروي ظمأه من ذلك النبيذ؟

فردّت إيزا قائلة: لا، لا أحسبها تدرك ذلك؛ فهي غبية كما قلت، لا ترى إلا ما تحب أن تراه، ومن الجائز أنها تصورَت أن يحموز سيشرب وحده من ذلك النبيذ فيموت، وأن يُنسب موته إلى التدخل السحري من ناحية روح نوفريت الشريرة الحسناء. كيت لا تستطيع أن تتصور إلا شيئاً واحداً بسيطاً لا أشياء عديدة ممكنة أو محتمَلة، ولأنها لم تكن تريد لسوبك الموت لم يخطر ببالها إمكان عودته وشربه من ذلك النبيذ.

ساد الصمت قليلاً ثم استطردت إيزا: والآن يأتي دور كامني، أجل، نحن لا يمكننا أن نستثني كامني من بحثنا، فصحيح أنه ليس هناك باعث ظاهر له على إيذائنا، لكننا لا نعرف كثيراً عنه. لقد جاء من الشمال مثل نوفريت، وقد راقبتُه حيناً عن كثب، ولكني لم أفهمه حقاً؛ فهو يبدو دائماً مرحاً خالي البال، ولم يُظهر اهتماماً كبيراً لموت نوفريت، فهل حزن كامني لوفاة نوفريت حقاً؟ وهل أراد الانتقام لها؟ وممّن ينتقم؟ أمن ساتيبي العدوة الأولى لنوفريت، أم من يحموز بوصفه زوج ساتيبي، أم من سوبك الذي طالما توعّد نوفريت؟ وهل يمكن أن يفكّر في الانتقام من كيت لأنها كانت تضطهدها، أم من إيبي لأنه كان يكرهها؟ ذلك يبدو

أقرب إلى الخيال، ولكن من يدري؟

ثم صمتت إيزا ونظرت إلى حوري متسائلة، فلم يزِد على أن كرر عبارتها الأخيرة قائلاً: من يدري؟

وأمسك حوري عن الكلام هنيهة ثم عاد فقال: لا، لا يمكنني أن أحدد اتّهامي الآن.

وصمت مرة أخرى ثم قال وكأنه يحدّث نفسه: الدليل الوحيد على ما يُكنّه عقل الإنسان هو سلوكه، فإذا كان سلوكه عجيباً مستغرَباً وتغيّر هو نفسه فعندئذ...

فسارعت رنزنب إلى إكمال عبارته قائلة: فعندئذ ترتاب فيه، أليس كذلك؟

- نعم، العكس هو الصحيح. الرجل الذي يكنّ الشر في ذهنه وتكون نواياه سيئة، إذا شعر بهذه الحقيقة في نفسه اجتهد في إخفائها عن الناس بكل وسيلة ممكنة، لذا لا يظهر منه ما يُستغرب.

- أتقصد رجلاً؟

- رجلاً أو امرأة.

- فهمت، ولكن ماذا لديكَ عنّا؟ ألا تمسنا الريبة نحن أيضاً؟

- بلى، يجب أن نفكر في ذلك أيضاً، فأنا مثلاً حُزت ثقة بالغة في هذا الدار، وفي يدي أمر كتابة العقود وبيع الحاصلات والمنتَجات، كما أنني أتولى جميع الحسابات، ومن المحتمَل أن أكون قد زيّفتها، كما كشف كامني تزييف الحسابات في الشمال،

وربما يكون يحموز قد بدأ يرتاب فيّ، ولهذا يكون من صالحي أن يسكت إلى الأبد.

وهنا قالت إيزا: وأنا؟ كيف يمكن أن تتجه الشبهات إليّ؟ حسناً، سأشرح لكم هذا بنفسي: أنا امرأة عجوز، والعقل في الكبَر يمرض أحياناً، فيبغض صاحبه مَن يجب أن يحبه، وقد أكون سئمت أحفادي، وعلى هذا عمدتُ إلى القضاء عليهم، فهذه محنة تصيب العجائز أحياناً من مسّ روح شريرة.

وهنا قالت رنزنب: وأنا؟ لماذا أحاول قتل أخي؟

فقال لها حوري: إذا مات يحموز وسوبك وإيبي فأنت التي ستبقين من ذرية أمحوتب، وعندئذ تجدين لك زوجاً ثم تنتقل كل أملاك أبيك إليك فتصبحين أنت وزوجك وصيَّين على أبناء يحموز وسوبك.

ثم ابتسم وواصل كلامه قائلاً: لكننا لا نرتاب فيك يا رنزنب.

وقالت إيزا: أجل، نحن لا يمكن إلا أن نحبك يا رنزنب.

* * *

الفصل الحادي عشر

لم تكَد إيزا تأوي إلى غرفتها حتى جاءت حنة تقول: عجباً! هل كنتِ خارج البيت؟ أنت لم تغادريه منذ عام تقريباً.

ثم وقفت تنظر إليها في فضول وتساؤل، فأجابتها إيزا: العجائز ذوات أهواء كما تعلمين.

- لقد رأيتك تجلسين عند البحيرة مع حوري ورنزنب.

فنظرَت إليها إيزا بعينيها الضيقتين وقالت: أجل، ولكن ليس بحيث يسمعني أحد.

- لا أدري لماذا كل هذه القسوة عليّ يا سيدتي! ليس هنا غير أمحوتب يقدّر إخلاصي.

فقالت إيزا بحدّة: صدقتِ يا حنة، أنت لا تعتمدين إلا عليه، أليس كذلك؟ فإذا حدث له شيء من...

فقطعت حنة كلامها قائلة: لا لن يحدث شيء لأمحوتب.

- وكيف علمت ذلك يا حنة؟ هل يضمن أحد الأمان في هذه الدار؟ لقد حدث شيء ليحموز، ومن قبله حدث شيء لسوبك و...

– هذا صحيح، فقد مات سوبك المسكين، وأشرف يحموز على الموت.

فاقتربت إيزا منها وأخذت تطيل النظر إلى وجهها ثم قالت: لماذا ابتسمت وأنت تقولين ذلك يا حنة؟

فبُهتت حنة وتمتمت: أنا؟ أنا ابتسمت؟ أنت تحلمين ولا شكّ، فهل من المعقول أن ابتسم ونحن نتكلم في هذا الأمر الرهيب؟

– اسمعي يا حنة، أنا حقاً ضعيفة البصر إلى حد يقرب من العمى ولكنني لست عمياء، ولذا أسألك مرة أخرى: لماذا ابتسمت ابتسامة تدلّ على ارتياح خفيّ واغتباط؟

فتظاهرت حنة بالغضب ثم أجابت: ما تقولينه يدعو إلى السخط يا إيزا.

فابتسمت إيزا قائلة: وأيضاً يدعو إلى الخوف، كما بدا في وجهك الآن.

فسكتت حنة قليلاً ثم قالت: من الذي لا يخاف وهذه الحوادث العجيبة تقع بالدار؟ نحن كلنا في خوف ورعب لأننا نشعر بالأرواح الشريرة تعود من عالَم الموتى لكي تعذّبنا، ولكنني أعرف ما هنالك، فقد كنت تستمعين إلى حوري. ما الذي قاله عني؟

– هل تخافين ممّا يعرفه حوري عنك يا حنة؟

– حوري لا يعرف عنّي أيّ شيء مطلقاً، ومن الأفضل أن تسأليني أنا عمّا أعرفه عنه.

- حسناً يا حنة، ماذا تعرفين عنه؟

فتنهدت حنة ثم أجابت: أنتم جميعاً تكرهون حنة المسكينة، وكذلك حوري يتجاهلني كلّما لقيني في أيّ مكان، ونظراته لي حين يواجهني تدل على أنه يعتبرني لستُ شيئاً في الوجود، على أن من الخير له أن ينظر إليّ وأن يشعر بوجودي. لقد ظنّت ساتيبي نفسها بارعة، فأين هي الآن؟

فنظرت إيزا إليها ثم أجابت: اذهبي يا حنة، اذهبي. أنا أحذّرك، فكوني على حذر في كلامك وأفعالك؛ فنحن لا نريد ضحايا جُدُداً في هذه الدار، ولعلك تفهمين، أليس كذلك؟

* * *

«لا شيء سوى الخوف»! لم تدرك رنزنب إلا فيما بعد معنى هذه الكلمات التي فاهت بها من حيث لا تشعر وهي جالسة عند البحيرة مع إيزا وحوري، ثم استدارت فاتجهت إلى مدخل صحن الدار، ولم تمضِ لحظة حتى دخل إيبي مرفوع الرأس وعلى وجهه ابتسامة مرحة ثم قال: لماذا تنظرين إليّ هكذا يا رنزنب؟

- هل كنتُ أنظر إليك؟

فضحك إيبي وقال: أنتِ أشبه بالذاهلة مثل حنة.

- حنة ليس بها شيء من الذهول، بل هي على عكس ذلك داهية خبيثة.

- أجل يا رنزنب، أنا أعرف أنها شديدة الخبث، والواقع أنها مخلوق ثقيل على مَن بالبيت، وفي نيّتي أن أتخلص منها.

ففغرت فاها مشدوهة ثم سألته: تتخلص منها؟ كيف؟

فابتسم إيبي وقال: ماذا بك يا أختي العزيزة؟ ماذا دهاك؟ هل رأيت أشباحاً كالتي رآها ذلك الغلام الأسود البائس الأبله.

فبقيت هنيهة صامتة ثم قالت: هل كل إنسان عندك أبله يا إيبي؟

- لا، ولكن ذلك الغلام كان أبله ولا شكّ، ولا أكتمك أنني لا أطيق الغباوة؛ فأنا أقاسي الكثير من الأغبياء، ولم يكن من دواعي السرور أن أُبتلى بأخوَين أكبر منّي بطيئَي الحركة لا يريان أبعد من أنفَيهما. والآن قد أُزيحا من طريقي ولم يبقَ سوى أبي لكي أعالجه، ولن يمر زمن طويل حتى أُظهر لك كيف أُسيّر الأمور، وسوف لا يفعل أبي إلاّ ما أشير به.

- اسمع يا إيبي، أخواك لم يُزاحا كلاهما عن طريقك كما قلت، لقد مات سوبك حقاً، ولكن يحموز سيستعيد صحته وقوته كما كان. هذا ما قرره مرسو الطبيب أيضاً.

فضحك إيبي باستهزاء ثم قال: لست موافقاً على هذا الرأي، فيحموز قد انتهى. ربما يستطيع فيما بعد أن يغادر فراشه ليزحف قليلاً في البيت أو ليجلس في ضوء الشمس، ولكنه لن يستطيع أن يعود كما كان أبداً. صحيح أنه أفلت من الموت متأثراً بالسم الذي تجرعه، لكنك ترين أن صحته لم تتقدم.

- ستتقدم صحته فيما بعد، وقد ذكر الطبيب أنه سيسترد قوته وحيويته بعد أيام.

فهزّ إيبي كتفيه وقال: الأطباء لا يعرفون كل شيء، وهم

في كثير من الأحيان يرسلون كلمات ضخمة جوفاء. أخونا العزيز يحموز انتهى، وفي استطاعتك أن تلومي نوفريت الشريرة إذا شئت.

وخطا نحوها حتى كاد وجهه يلامس وجهها ثم قال لها: من أجل ذلك ينبغي لك أن تحذري غضبي يا رنزنب.

فلم تُجِب، بل وقفت تتفرس في وجه إيبي، ثم سمعت وقع قدمين خلفها، فإذا بكيت قد أقبلت ثم وجّهَت الخطاب إليها قائلة: ماذا يقول لك إيبي يا رنزنب؟

فقالت بهدوء: يذكر أنه سيصبح سيد البيت عمّا قريب.

فقالت كيت دون أن تنظر إليه: أهذا ما يظنّه؟

ثم هزّت رأسها بأسف وحسرة كأنما تستبعد ذلك، ثم عادت من حيث أتت.

* * *

كان أمحوتب جالساً مع حوري يفحصان ورقة حساب، فلمّا لمح إيبي قادماً انفرجت أسارير وجهه وقال مرحّباً به: ها هو ذا عزيزي إيبي. ماذا وراءك من أنباء المزرعة؟

فردّ إيبي: كل شيء يسير على ما يرام يا أبي، وقد كنّا نحصد الشعير، ومحصوله وافر في هذه المرة.

فتنفّس أمحوتب الصعداء ثم قال: ذلك من فضل رع. كل شؤوننا خارج الدار تسير على أحسن حال، فليت الأمر كان هكذا فيما يختصّ بشؤوننا الداخلية، ولكنني شديد الثقة في عشايت،

فهي لن تخذلنا ولن تضنّ علينا بعونها في كربنا الحاضر. أنا قلق جداً على يحموز بسبب ضعفه المستمر.

وهنا ردّ إيبي قائلاً: مسكين يحموز، لقد كان ضعيفاً باستمرار.

وهنا ردّ حوري قائلاً: لا، بل كان في صحة جيدة دائماً.

فقال إيبي مؤكّداً قوله: صحة الإنسان تتوقف على حالته الروحية، ويحموز لم تكن لديه حيوية قط، لقد كان يخاف حتى من إصدار الأوامر.

فقال أمحوتب: لم تكن هذه حاله في العهد الأخير، وقد برهن لي على أنه أهل للسلطة، وقد أدهشني ما اعتراه من التغيّر، ولكن هذا الضعف في أعضائه يزعجني، وقد أكد لي مرسو أنه متى زال أثر السم من جسمه لا يلبث إلاّ قليلاً حتى يشفي، ولكن ما الذي ينبغي عمله؟ لقد لجأنا إلى عشايت وبعثنا بالهبات إلى المعبد، برغم أنني لا أعتقد ما يعتقده النساء من فائدة ذلك، فما الذي نفعله أكثر من ذلك؟

فقال حوري: دع أحد العبيد الموثوق بهم يُعدّ له طعامه، ولنراقب ذلك العبد باستمرار، وعلى أيّ حال لن نخسر شيئاً إذا جرّبنا ذلك.

وعلى أثر ذلك غادر إيبي الغرفة في حين كان حوري يشيّعه بنظراته وكله حيرة.

وفي طريقه اصطدم إيبي من حيث لا يشعر بحنة بعد مغادرته البيت غاضباً، فكاد يطرحها أرضاً من قوة الصدمة ثم قال لها

بحدّة: ابتعدي عن طريقي يا حنة، أنت هكذا دائماً تزحفين وتقفين في الطريق.

فوقفت تنظر إليه بدهشة ثم قالت: أنت جافّ يا إيبي! لقد آلمتَ ذراعي.

- هذا حسن، فأنا ضجِر منك ومن طريقتك، وخير لك أن تبادري بالخروج من هذا البيت وإلا فسأتولّى أنا أمر إخراجك.

فلمعت عيناها بخبث ثم قالت: إذن فأنت تريد أن تخرجني من البيت؟ هل هذا جزائي يا إيبي بعد كل ما منحته لكم من العناية والمحبة؟ أنت بادي الغضب يا إيبي، فما الذي أغضبك؟ هل أنت خائف من شيء؟

فنظر إليها بازدراء ثم قال: أنت لا تخيفينني أيتها الهرة العجوز.

ثم تركها ومضى خارجاً من المنزل، فمضت حنة بخطىً بطيئة حتى اقتربت من غرفة يحموز، فسمعته يتأوه ثم رأته يحاول النهوض من سريره، لكنّ ساقَيه خذلتاه فكاد أن يسقط على الأرض، فأسرعت إلى مساعدته وقالت له: هيا لترجع إلى سريرك يا يحموز.

فنظر إليها يحموز مليّاً ثم قال: أنت قوية يا حنة، ومن يراك لا يتصور أبداً أنك بهذه القوة.

ثم عاد إلى فراشه فتمدّد فوقه واستأنف كلامه قائلاً: شكراً لك، لكن... ما الذي دهاني؟ أنا مشرف على الموت.

فقالت حنة بجدّ: لا تقل هذا، غيرك سيموت قبلك.

فاتّكأ وقد استند إلى مرفقه وحملق إليها ثم قال: ماذا تعنين يا حنة؟

- أنا أعرف ماذا أقول، ولست أنت الذي عليه الدور في الموت.

* * *

وقف كامني في طريق رنزنب وقال لها: لماذا تتحاشين لقائي يا رنزنب؟

فاحمرّ وجهها ولم تُجِب فعاد يسألها: لماذا يا رنزنب؟ أخبريني عن السبب؟

ولكنها لم تُجِب إلاّ بهزّ رأسها، ومضت لحظة وهي واقفة تتأمله وهو ينظر إليها، وكانت تخشى أن يكون وجهه قد تغيّر كما تغيّر كل شيء في المنزل، ولكن سرّها أن رأته كما كان، وإن بقي ينظر إليها بجد دون أن يفترّ ثغره عن ابتسامته المعتادة، ثم خفضت بصرها؛ فقد كانت دائماً تضطرب من نظرته ويختلج جسدها من قربه وتسرع دقات قلبها إذا حدّثها، ثم عاد هو فسألها: لماذا تتحاشينني يا رنزنب؟

فاستجمعت نبرات صوتها الهارب ثم قالت: أنا لم أكن أتحاشاك، ولم أرَك قادماً.

فابتسم وقال وهو يمسك ذراعها: أنت لا تقولين الحقّ.

فسَرَت الرعدة في جسدها حين شعرت بيده القوية تمسك ذراعها، لكنها سرعان ما حررتها منه قائلة: لا أحب أن يلمسني أحد.

ففزع ثم قال: لماذا تصدّينني يا رنزنب؟ أنت ما زلت في عنفوان الشباب قوية جميلة، وممّا يناقض الطبيعة أن تظلّي حزينة على زوجك طول حياتك. سوف نذهب بعيداً عن هذا المنزل، فهو مليء بالموت والأرواح الشريرة. ستذهبين معي إلى حيث تكونين في أمان.

فظلّت رنزنب صامتة لا تنطق بنعم أو بلا، لكنها شعرت بقلبها يدقّ سريعاً وشعرت بضعف يعتري حواسّها، وإلى جانب هذا الشعور الناعم، شعور الضعف والاستسلام، تملّكها شعور آخر بالعداء والتحدي، فقالت تحدّث نفسها: لمسة واحدة من يده لذراعي تجعلني أفقد كل قواي! كامني قويّ عريض الكتفَين ضاحك الثغر ولكنني لا أدري شيئاً عمّا يدور بذهنه، ولا أدري شيئاً عن قلبه ومدى وفائه. آه، ما الذي أريده؟ لا أدري حقاً!

ثم قالت له: لا أريد أن أتزوج، بل أريد أن أبقى وحيدة لنفسي.

- أنت مخطئة يا رنزنب، فأنت لم تُخلقي لتعيشي وحيدة.

قالت له: أنا لا أحبك يا كامني، بل أظنني أمقتك.

فابتسم وقال: لا أبالي مقتك لي؛ فالبغض قريب جداً من الحب، وسوف نتحدث عن ذلك مرة أخرى.

ثم تركها ومضى، فمضت رنزنب بخطىً بطيئة أيضاً حتى بلغت البحيرة حيث كانت كيت فجلست بجانبها، وأخذت كيت تكلمها فتردّ عليها ردوداً قصيرة مبهَمة، ثم سكتتا.

فجأة قطعت رنزنب حبل الصمت بقولها: هل ترين أن أتزوج

من جديد يا كيت؟

فأجابت كيت قائلة دون اكتراث: لا أرى ضيراً في ذلك؛ أنت في عنفوان الشباب وموفورة الصحة، ويمكنك أن تنجبي أطفالاً إلى جانب تيتي.

فعادت تقول: أهذا كل ما في حياة المرأة يا كيت؟ ألا يوجد شيء غير شؤون المنزل وإنجاب الأطفال وملاعبتهم في أوقات الفراغ عند البحيرة أو تحت شجرة الجميز.

فأجابت كيت باهتمام: نعم، هذا كل ما يهمّ المرأة وما يملأ حياتها، ولا شكّ أنك تعلمين ذلك.

- لكنك تتكلمين وكأن المرأة أَمَة رقيقة، والواقع أن النساء لهنّ مكانة ونفوذ في مصر؛ فعن طريقهن ينتقل الميراث إلى أولادهن. النساء بمثابة الدم الذي يجري في شرايين البلاد.

ثم أخذت رنزنب تتأمل تيتي وهي مشغولة بصنع قلادة من الزهر لدميتها وقد قطبت جبينها قليلاً لاهتمامها بما تفعله، ونظرت كيت أخيراً إلى رنزنب متسائلة ثم قالت لها: ماذا تريدين يا رنزنب؟ أنا لم أفهم مرادك جيداً.

فتنهدت مرة أخرى ثم قالت: لا شيء، لا أعني شيئاً.

ثم عادت تنظر إلى ما حولها فسرّها منظر الأطفال وهم يلعبون في الماء، وكانت كيت جالسة ترقبهم في سكون ثم قالت بصوت خافت: ما أهدأ هذا المكان! مَن يتصور أنّ شيئاً فظيعاً يحدث هنا.

وفي صباح اليوم التالي حدث في ذلك المكان الهادئ نفسه

إلى جانب البحيرة أفظع ممّا استبعدت رنزنب أو يتصوره أحد؛ فقد وُجد إيبي منبطحاً هناك على الأرض ووجهه في الماء، وكان واضحاً أن يداً أمسكته وأرغمته على اتخاذ هذا الوضع حتى اختنق وفارقته الحياة!

* * *

الفصل الثاني عشر

جلس أمحوتب منطوياً على نفسه وقد عاجله وهن الشيخوخة قبل الأوان، فبدا شيخاً محطَّماً مغضَّن الوجه ترتسم على وجهه ملامح الخوف والدهشة، وجاءت حنة إليه بالطعام فراحت تقنعه بتناوله قائلة: ماذا دهاك يا سيدي؟ يجب أن تأكل لتحفظ عليك قوتك.

لكنه لم يستجِب لكلامها ثم قال: لماذا آكل يا حنة؟ وما فائدة القوة؟ لقد كان إيبي قوياً بشبابه وجماله، والآن ها هو ذا يرقد في الماء المالح. لقد مات إيبي يا حنة، مات إيبي العزيز آخِر أبنائي.

فاقتربت منه حنة وهمست قائلة: لا يا أمحوتب، لا يزال لك يحموز، وفيه لك عزاء وسلوى.

فهزّ رأسه ساخراً وقال: يحموز لا زال لي؟ بل هو مقضيّ عليه أيضاً، ونحن كلنا مقضيّ علينا. أيّ سوء حل بنا جميعاً؟ أكان عليّ أن أعلم أن المصائب ستنزل بنا لأنني اتخذت لي زوجة، أم تُرى عشايت تريد أن تنتقم منّي؟

- لا، لا ينبغي لك أن تقول ذلك، فلم يمضِ إلا وقت وجيز منذ وُضع الوعاء الذي حُفر عليه الالتماس في غَرفة الهبات. ألا

تعلم طول الوقت الذي يتطلبه التقاضي في هذا العالَم الدنيوي والتأجيلات التي لا تنتهي في المحكمة المركزية والوقت الأطول من كل ذلك إذا عُرضت الدعوى على الوزير؟ العدالة هي العدالة في هذا العالَم، تسير دائماً ببطء، ولكنها تُعالج بالحق في النهاية.

فهزّ أمحوتب رأسه مرتاباً فاستطردت حنة قائلة: ثم لا تنسَ أن إيبي ليس ابن عشايت، بل كانت أمه هي زوجتك الثانية، إذن ليس هناك ما يضطرّ عشايت إلى التعجيل في الأمر. أما يحموز فالأمر مختلف فيما يختص به، ولا يمكن أن تهمله عشايت. يحموز سيبرأ من مرضه، ولا شكّ في ذلك لأن عشايت ستتولى أمره.

فتنفس أمحوتب الصعداء ثم قال: أجدُ في كلامك عزاءً كبيراً لي يا حنة؛ فأنت تقولين الحق. يحموز يستعيد قوته باطّراد كل يوم، فهو ابن طيّب مخلص، ولكن ما أشدّ حزني على إيبي! لقد ذهب أنضر ما يكون صحّة وشباباً وجمالاً.

عاد أمحوتب يتأوه نادباً ولده، فقبعت حنة بين يديه كالكلب وقد تظاهرت بالبكاء، ثم قال: آه من تلك الفتاة الملعونة ومن جمالها! ليتني لم تقع عيناي عليها.

فقالت له حنة: صدقتَ يا سيدي.

وما إن أتمّت جملتها حتى وصل إلى سمعهما وقع عصا تقرع الأرض، ثم ظهرت إيزا قادمة تعرج إلى الردهة وصاحت قائلة: ألم يبقَ لأحد عقل في هذا البيت؟ أليس لديك يا أمحوتب من عمل إلا أن تلعن تلك الفتاة البائسة التي لا ذنب لها إلا أن استجابت لرغبتك فجاءت معك من الشمال؟ ما ذنبها حين انغمست في مكر النساء؟ مسلك الغباء الذي تعرضَت له في الدار من زوجتَي ابنَيك

كان لا بدّ أن يثيرها.

فردّ أمحوتب: أتسألين ما ذنبها يا أمي؟ ألم يذهب ضحية مكرها وكيدها اثنان من أبنائي؟ وهذا هو الثالث يوشك أن يلحق بهما.

- هذا ما كنتُ أنتظر أن أسمعه منك ما دمت لا تنظر إلى الوقائع كما هي. امحُ من ذهنك تلك الخرافة السخيفة التي تزعم أن روح فتاة ميتة تُنزل السوء بهذا المنزل. رأس إيبي لم تضعه في الماء إلا يد إنسان، ولا شكّ أن يد إنسان أيضاً هي التي وضعت السم في النبيذ لسوبك ويحموز. يا ولدي، لك عدو هنا في هذه الدار، والدليل على ذلك أنه منذ اتُّبعَت نصيحة حوري وصارت رنزنب تُعدّ طعام يحموز بنفسها أو تحت رقابتها وتحمله بنفسها إليه، منذ ذلك ويحموز يستعيد صحته وقوته كل يوم باطّراد، وحنة تشجعك على هذا لأنها حمقاء أيضاً. زوجتك الراحلة عشايت قد تبذل نفوذها لمعاونتك في العالَم الآخَر، ولكنها لا تستطيع أن تفكر بدلاً منك في هذا العالَم، فعلينا أن نعمل، وإلا فستكون هناك ضحايا جديدة.

- أتعتقدين أن لي عدواً حياً في هذه الدار يا أمّاه؟

- نعم، أعتقد ذلك لأنه هو الشيء الوحيد المعقول؟

- إذا صح هذا فنحن جميعاً في خطر.

- لا شكّ في أننا كذلك يا بني، فنحن جميعاً في خطر شديد، وهذا الخطر لا دخل فيه للسحر وأرواح الموتى لأنه خطر تسلّطه علينا يد إنسان حيّ يعيش بيننا آمناً مطمئناً، فهو الذي وضع السم في الطعام والشراب، وهو الذي انسلّ وراء إيبي العزيز وهو عائد

ليلاً من القرية فوضع رأسه في الماء قهراً حتى مات.

فأطرق أمحوتب مفكراً ثم رفع رأسه أخيراً وقال لأمه: عمل كهذا يتطلب قوة وجرأة وحيلة، فقد كان إيبي قوياً.

- أجل، كان إيبي قوياً جديراً بأن يُرهَب جانبه، ولكنه كان قد شرب كثيراً من النبيذ في القرية، ولعله انحنى من تلقاء نفسه ليغسل وجهه بماء البحيرة، وفي تلك الحالة كان قليل من القوة يكفي لكي يُدفع رأسه في الماء ويغمره فيه حتى تزهق أنفاسه وتهمد حركته، ومن الجائز جداً أن إيبي لم يكن يتوقع ممّن كان بجانبه حينذاك أن يخونه.

فبان الجد في وجه أمحوتب ثم قال لأمه: ماذا تقولين؟ أتعنين أن امرأة مثلاً قد اغتالت إيبي وغدرت به؟ هذا مُحال، أجل، هذا محال يا أماه؛ فلو أن البيت فيه عدو لدود للأسرة إلى هذا الحد ما خفي عليّ أمره.

- هناك شر يكمن بالقلب ولا يبدو على الوجه.

- أتعنين أحداً من عبيدنا أو خدمنا؟

- لا؛ فالعبيد والخدم لا يمكن أن يفكروا في ذلك.

- إذن فأنت تعتقدين أن الجاني من بيننا نحن، أليس كذلك؟ ولكن من يكون يا تُرى؟ حوري كما تعلمين بمثابة فرد من أفراد الأسرة، وقد برهن على إخلاصه وأثبت أنه أهل للثقة، وليس كامني بغريب عنّا، فهو يمتّ إلينا بصلة القرابة، وقد برهن على إخلاصه بالجد في خدمتي، وفضلاً عن ذلك جاءني صباح اليوم يطلب منّي أن أوافق على زواجه برنزنب.

فاهتمت إيزا بهذا النبأ وقالت: هل طلب منك ذلك؟ وبمَ أجبت؟

- وماذا أقول له؟ هل هذا وقت مناسب لطلب الزواج؟

- وما الذي قاله كامني بعد أن أخبرته بأن الظرف غير مناسب؟

- ذكر أنه يعتقد عكس ذلك لأن رنزنب ليست في أمان هنا.

- هل هي كذلك حقاً؟ لقد كنتُ أظنها في أمان، وكذلك يظن حوري، ولكن هل في إمكانك الآن أن تُجري مراسم زواج ومراسم وفاة في وقت واحد؟ هذا الأمر غير لائق. الإقليم كله سيتحدث عن ذلك لو أنه حدث.

ثم ابتسمت إيزا ابتسامة متجهمة فنظر إليها أمحوتب ثم قال: ما تقولينه ليس مزاحاً، ولكنه الحقيقة الواقعة ويا للأسف!

فقالت إيزا بحزم: لا تثق بأحد، هذا أهم شيء، لا تثق بأحد.

وهنا بدأت حنة تنتحب وقالت لإيزا: لماذا تنظرين إليّ؟ أنا واثقة أنه إذا كان أحد هنا جديراً بالثقة فهو أنا.

فالتفت أمحوتب إلى حنة وقال لها: لا تبكي يا حنة، أنا أثق بك، بل أنا على يقين من أنك صادقة مخلصة.

فقالت له إيزا: أنت لا تعلم شيئاً يا أمحوتب، ولا أحد منّا يعلم شيئاً، وهذا هو وجه الخطر المحدّق بنا.

فصاحت حنة: أنت تتهمينني يا سيدتي، وهذا شيء لا يطاق.

- ليس في استطاعتي أن أتّهم أحداً، فهذا مجرد احتمال لا أكثر، وليس عندي دليل قاطع ضدّ أحد.

فقال لها أمحوتب باهتمام: احتمال؟! هل اتجه ذهنك إلى اتّهام أحد؟

- نعم، مرة ومرتين وثلاثاً. سأصدقك القول، لقد ارتبتُ أولاً في إيبي، ولكن إيبي مات، إذن كان ظنّي خاطئاً، ثم ارتبتُ في شخص آخَر، ولكنني في اليوم الذي مات فيه إيبي لاح لي احتمال ثالث.

وتوقفت عن الكلام هنيهة ثم قالت: هل حوري وكامني في الدار؟ ابعث في طلبهما واطلب رنزنب من المطبخ أيضاً، وكذلك كيت ويحموز، فلدي شيء يجب أن يسمعه كل مَن بالدار.

* * *

نظرت إيزا إلى أفراد الأسرة المجتمعين حولها، ولم يفُتها أن تلاحظ -رغم ضعف بصرها- نظرة يحموز الجادة الرقيقة وابتسامة كامني والخوف الظاهر في عينَي رنزنب والجمود وعدم الاكتراث في ملامح كيت والألم والعذاب في وجه أمحوتب والفضول المختلط بالسرور في عينَي حنة، ثم قالت لنفسها: وجوههم لا تنمّ عن شيء يفيدني، فهي تُظهر تأثرها الخارجي، ولكن إذا كنتُ على صواب فلا بد أن أحدهم سيخونه مظهره.

ثم قالت بصوت مرتفع: لديّ شيء أريد أن أفضي به إليكم

جميعاً، ولكنني سأكلم حنة أمامكم جميعاً أولاً.

فتغيرت ملامح حنة واختفت من وجهها أمارات الفضول والسرور وحلّ محلّها الفزع ثم قالت معترضة: أنت ترتابين فيّ يا إيزا، وقد كنتُ أعرف ذلك. لا بدّ أنك ستقيمين قضية ضدّي، وسوف يُحكَم عليّ دون أن يُسمَع لي قول.

فقالت إيزا ساخرة: بل نحن سنسمعك جميعاً.

ثم نظرت إلى حوري فرأته يبتسم، ثم استطردت حنة فقالت مضطربة: أنا لم أرتكب إثماً، أنا بريئة.

- بل قلت يا حنة كلاماً سمعتُه بأذني، قلت إنك تعرفين شيئاً ما عن حوري، والآن أخبرينا ماذا تعرفين عنه؟

فبدا شيء من الدهشة على حوري ثم قال: أجل يا حنة، ماذا تعرفين عنّي؟ هيا تكلّمي.

فعادت حنة إلى مكانها وقالت: لا أعرف شيئاً، وماذا يمكن أن أعرف عنه؟

- هذا ما نطلب منك أن تذكريه.

فهزّت حنة كتفيها وقالت: لقد كان ذلك كلاماً لا معنى له، ولم أكن أقصد شيئاً.

- سأعيد على مسمعكِ ما قلته، لقد ذكرت أننا جميعاً نحتقرك، ولكنك تعرفين الكثير ممّا يجري في هذا البيت وترين أكثر مما يراه الدهاة، ثم قلت إن حوري حين يقابلك ينظر إليك وكأنك غير موجودة، وكأنه يرى شيئاً وراءك، شيئاً ليس موجوداً.

- إنه ينظر إليّ هكذا دائماً، ينظر إليّ وكأنّني حشرة أو شيء لا قيمة له مطلقاً.

- ولكن هناك جملة ثبتت في ذهني، وهي وصفك لنظرته إليك بقولك: «وكأنه يرى شيئاً غير موجود»، كما قلت لي أيضاً: «من الخير له أن ينظر إليّ». وبعدئذ تكلمت عن ساتيبي، أجل، تكلمتِ عن ساتيبي فقلت: «إنها كانت ماهرة ولكن أين هي الآن؟»، أليس كذلك يا حنة؟

ثم نظرت إيزا حولها وقالت: ألا يعني ذلك شيئاً؟ فكّروا في ساتيبي التي لم تعُد على قيد الحياة، وتذكّروا أن الإنسان يجب أن ينظر إلى شخص لا إلى شيء غير موجود.

وساد صمت رهيب ثم أخذت حنة تصرخ قائلة: أنا لم أقُل شيئاً. أنقذني يا سيدي، لا تدعها... لم أقُل شيئاً.

فاشتدّ الغضب بأمحوتب حتى أنه لم يقدر أن يكظمه وصرخ قائلاً: هذا شيء لا يُحتمل، وأنا لا أسمح بأن تُتّهم هذه المرأة المسكينة وتروَّع هكذا. ماذا عندك ضدها؟

فقال يحموز بخوفه المعتاد: أبي على صواب؛ إذا كانت لديك تهمة واضحة ضد حنة فأبرزيها يا جدتي.

فقالت إيزا بهدوء: أنا لا أتهمها.

ثم استندت إلى العصا وبدا جسمها وكأنه قد انكمش، وهنا التفت يحموز إلى حنة وقال: إيزا لا تتهمك بإحداث الفظائع التي حدثت، ولكن إذا صح ما فهمتُه منها فهي تظن أنك تعرفين شيئاً وتكتمينه، فماذا تعرفين؟

ولكن حنة هزّت رأسها وقالت: أنا لا أعرف أيّ شيء مطلقاً.

- تأكدي مما تقولين لأن المعرفة خطيرة.

- لا أعرف شيئاً، وأقسم على ذلك.

وهنا قالت إيزا: أريد العودة إلى غرفتي الآن.

فهُرع إليها حوري ورنزنب ليساعداها فقالت: لا أريدك أنت يا رنزنب، أريد حوري فقط.

ثم استندت إليه حتى وصلت إلى الغرفة، فلمّا نظرت إليه رأته عابساً ثم قال لها: لقد كنتِ غير حكيمة يا إيزا؛ لقد جازفت مجازفة خطيرة.

- إذن فأنت تعتقد مثل ما أعتقد أنا، أليس كذلك؟

- اعتقدت ذلك منذ حين، ولكن ليس عندي دليل ولا ظلّ من دليل حتى الآن، وكذلك أنت أيضاً، فكل ما لديك استنتاج لا أكثر. والآن يجب أن تحذري يا إيزا، فقد أصبحت في خطر.

* * *

الفصل الثالث عشر

قال أمحوتب لرنزنب بعد أن عرض عليها أمر خطبة كامني لها: والآن وقد أصبح الأمر في يدك يا رنزنب، ماذا ترين؟

فنقلت رنزنب بصرها بين أبيها ويحموز حائرة ثم قالت: لا أدري.

فاستطرد أمحوتب قائلاً: لو كانت الظروف طبيعية لكان أمامنا فسحة من الوقت للبحث. لي أقارب آخَرين، وكان في مقدوري أن أختار منهم أليَق الأزواج لك، ولكن في مثل هذه الظروف لا يطمئن الإنسان إلى الحياة.

ثم ضعف صوته وخفت وهو يتم كلامه قائلاً: هذا هو الموقف يا رنزنب، الموت يهدّدنا نحن الثلاثة، أنا وأنت ويحموز، ولا أدري أينا يموت قبل الآخَرَين، لذا ينبغي لي أن أدبّر أموري، فإذا حدث شيء ليحموز فستكونين أنت ابنتي الوحيدة، وعندئذ ستحتاجين إلى رجل يقف إلى جانبك ليشاركك في الميراث ويقوم بمهام المزرعة التي لا يمكن أن تتولاها امرأة، فمن يدري متى تحين ساعتي؟ ولقد رتّبت في وصيتي أمر الوصاية على أولاد سوبك، على أن تكون لحوري إذا لم يكن يحموز على قيد الحياة، كذلك

دبّرت أمر الوصاية على أولاد يحموز، أليس كذلك يا يحموز؟

فأومأ يحموز برأسه موافقاً ثم قال: حوري دائماً حبيب إلى قلبي وكأنه فرد منّا.

- صدقتَ، ولكنه مع هذا ليس من أسرتنا، أما كامني فهو من ذوي رحمنا، فمهما نقلّب الأمر على وجوهه نجده أحسن زوج أمامنا لرنزنب.

ثم نظر إليها متسائلاً فغمغمت قائلة: لا أدري.

فعاد أمحوتب يقول لها: هو وسيم الطلعة سارّ الصحبة، أليس كذلك؟

فاكتفت بأن أومأت برأسها موافقة، ثم سألها يحموز: لعلك لا تريدين أن تتزوجيه بالرغم من ذلك؟

فنظرت رنزنب إلى أخيها نظرة شكر وقد أدركت أنه لا يريد منها أن تتعجل في الارتباط بشيء لا ترتاح إليه، ثم قالت: أنا في الحقيقة لا أدري ماذا أريد، وهذا غباء، ولكنني في الواقع غبية اليوم، ولعل هذا من أثر الفزع الذي نعيش فيه.

- لو أن كامني صار لك زوجاً لشعرتُ بأنك في حماية.

وهنا قال يحموز لأبيه: ألم يخطر ببالك قط أن تزوجها حوري؟

- هذا أيضاً شيء في الإمكان.

فواصل يحموز كلامه قائلاً: لقد ماتت زوجة حوري وهو شاب صغير، ورنزنب تعرفه حق المعرفة وتميل إليه.

ثم أخذ هو وأبوها يناقشان مسألة زواج رنزنب في حين جلست هي وكأنها ترى رؤيا في المنام، وقد شعرت بأن يحموز يعاونها على أن تختار من تريده حقاً، ولكنها كانت في تلك الساعة جامدة بلا حياة مثل دمية ابنتها تيتي، وفجأة قطعت حديثهما وقالت: سأتزوج كامني ما دام أبي يراه لائقاً لي.

فأبدى أمحوتب ارتياحه لذلك وخرج توّاً من القاعة، في حين دنا يحموز منها فوضع يده على كتفها قائلاً: أحقاً أنت راغبة في هذا الزواج يا رنزنب؟

وقد راعها ما بدا عليه من عزم، ثم قال: سأعارض أبي في هذه المسألة، فهو لا يمكن أن يرغمني على الموافقة.

- أنت رحيم بي يا يحموز، لكن ثق أنني في هذه المسألة لم أستسلم مرغَمة. الحياة القديمة التي ألفتُها في صغري وجئت لأستعيدها هنا قد انتهت، وسأبدأ مع كامني حياة جديدة.

- هل أنت واثقة من أنك ستكونين سعيدة مع كامني؟

فنظرت إليه دون أن تجيب بأية كلمة، ثم أومأت برأسها موافقة وغادرته منصرفة إلى البحيرة عبر صحن الدار، ولمّا اقتربت من شاطئ البحيرة حيث كان كامني يلاعب تيتي وقفت تراقبهما من حيث لا يشعران بذلك، وكان كامني مرحاً بادي السرور بملاعبة الطفلة كعادته، فشعرت رنزنب بالميل إليه وقالت لنفسها: سيكون نِعم الأب لتيتي.

ثم أدار كامني رأسه فرآها فضحك وقال: تيتي شديدة الذكاء، فضلاً عن أنها جميلة وقوية.

ثم أخذ يردد بصره بين الطفلة وأمها، فأدركت رنزنب من نظراته أنه يفكر في الأطفال الذين سوف تلدهم له، فشعرت برعشة طرب لذلك ثم ابتسمت له ابتسامة رقيقة وقالت: لقد كلمني أبي...

فسارع إلى سؤالها بلهفة: وأنت وافقت، أليس كذلك؟

فترددت لحظة ثم قالت: بلى، وافقت.

- إذن سنركب معاً زورقاً في رحلة على صفحة النيل، فهذا أقصى مُناي.

فتذكرت حين سمعته يقول ذلك كيف رأته لأول مرة حين جاء يومئذ راكباً زورقه، ثم سمعت كامني يهتف بها بصوت ينمّ عن انزعاج: فيمَ تفكرين يا رنزنب؟ ألا تأتين معي إلى النيل الآن؟

فقالت له: بلى يا كامني، سآتي معك.

فبدا البِشر على وجهه ثم أسرع إلى حيث كانت الطفلة تواصل اللعب فأقامها بعطف وهو يقول لرنزنب: ستكون تيتي معنا.

* * *

مضى الزورق منساباً على صفحة النيل وفيه رنزنب وكامني وتيتي. ابتعدوا عن الموت وعن الخوف من الموت، وهذه بداية الحياة الجديدة لرنزنب. كان كامني يكلمها فتجيبه وكأنها في غيبوبة! كانت تحدث نفسها قائلة: هذه حياتي، ولا مفرّ منها، ولكن لماذا أذكر المفر؟ وإلى أي مكان يمكنني أن أفرّ؟ هذه هي الحياة ولا مفرّ منها.

ثم أرسى كامني الزورق فنزلت منه إلى اليابسة، وحمل هو تيتي ليلحق برنزنب، وقد التصقت به الطفلة وأحاطت عنقه بذراعيها حتى ثنت يدُها سلسلة التميمة التي يحملها، وهي شارة ذهبية تمثل عنخ، فأمسك كامني بتلك التميمة وراح يثنيها بأصابعه القوية إلى أن شطرها نصفين، ثم مدّ يده بأحدهما إلى رنزنب قائلاً: خذي هذا الشطر وسآخذ أنا الشطر الثاني، دلالة على أننا نصفان لجسم واحد.

فمدّت يدها لتأخذ شطر التميمة، لكنها في تلك اللحظة تذكرت شيئاً فقبضت يدها بحركة لا إرادية، فبُهت كامني لذلك وسألها: ماذا بكِ يا رنزنب؟

فتمتمت قائلة: نوفريت.

ازدادت دهشته فسألها: ماذا تعنين؟ ما لنا ولنوفريت الآن؟!

- قد كان لنوفريت تميمة مكسورة كهذه، وقد وجدتُها في علبة حليّها. أنت... أنت الذي أعطيتها إياها! أجل... أنت ونوفريت. الآن أدركت لماذا كانت تعِسة، والآن أيضاً عرفتُ مَن وضعَت علبة الحلي في غرفتي. أجل يا كامني... أنا الآن أدركتُ كل شيء.

ولم يعترض كامني، بل وقف ينظر إليها ثم قال وقد فارقت ثغره ابتسامته المعهودة: أنا لن أكذبك القول يا رنزنب.

وسكت قليلاً وقد قطّب جبينه وكأنه يرتب أفكاره ثم قال: يسرّني أنك عرفتِ الحقيقة، وإن لم تكن كما تتصورينها تماماً.

- أنت الذي أعطيت نوفريت نصف التميمة المكسورة كما أردتَ أن تعطيني شطر هذه التميمة. لا شكّ في أنكما كنتما شطرين لجسم واحد.

- أنت غاضبة يا رنزنب، لكن غضبك يسرني لأنه دليل على أنك تحبينني، ولكن مع ذلك يجب أن أشرح لك الأمر. أنا لم أعطِ نوفريت تلك التميمة بل هي التي أعطتني إياها!

وسكت لحظة ثم قال: ربما لا تصدقينني، لكن هذه هي الحقيقة.

- لا أريد إلاّ أن أصدقك، وقد يكون ما قلتَه لي هو الحق.

وبدت لمخيّلتها نوفريت بوجهها الجميل الحزين، واستمرّ كامني يقول: حاولي أن تفهمي يا رنزنب. لقد كانت نوفريت شديدة الجمال، وقد سرّني تعلقها بي وملأ نفسي غروراً، غير أنني لم أكن متيَّماً بحبها.

فشعرت رنزنب بغمرة من الشفقة. لا، كامني لم يحب نوفريت، ولكن نوفريت كانت تحبه حباً يائساً مراً، فهي في هذه البقعة بالذات على شاطئ النيل قد كلّمت نوفريت صباح يوم فعرضت عليها المودّة والمحبة، ثم تذكرت موجة البغض والشقاء التي واجهتها نوفريت بها في تلك اللحظة. السبب واضح الآن كل الوضوح. يا لنوفريت البائسة! كانت زوجة لشيخ كثير الجلبة، وكان يأكل قلبَها حب شاب وسيم لا يكترث لها.

فواصل كامني كلامه قائلاً: ألم تعلمي يا رنزنب أنني ما إن رأيتك في هذا البيت حتى أحببتك، وأنني منذ تلك اللحظة لم يملأ قلبي سواك؟ وقد أدركَت نوفريت ذلك.

ففكرت رنزنب وقالت لنفسها: أجل، قد أدركَت نوفريت ذلك، ولا شكّ أنها أبغضتني منذ تلك اللحظة، وهي إذن ما كانت تستحق الملامة.

قال كامني: لم أُرِد أن أكتب لها ذلك الخطاب إلى والدك، ولم أحب أن تكون لي يد فيما تدبّره، ولكن كان من الصعب أن أمتنع.

فقالت رنزنب وقد نفد صبرها: أجل، أجل، كل ذلك لا يهمّ الآن، ولكن التي أفكر فيها الآن هي نوفريت فقط، فقد كانت تحبك بشدة.

- لكنني لم أبادلها حباً بحب.

- لعل ذلك لأنك قاسي القلب.

- لا، بل لأنني رجل، وهذا كل ما في الأمر، وإذا كانت هناك امرأة قد أرادت لنفسها التعاسة بسببي فهذا يزعجني حقاً. ولكنني لم أحب نوفريت، بل أحببتك أنت.

وهنا لم يسع رنزنب إلاّ أن ابتسمت في حين استطرد كامني فقال: لا تدَعي نوفريت بعد أن ماتت تُحدث شقاقاً بيننا نحن الأحياء. أنا أحبك يا رنزنب وأنت تحبينني، وهذا كل ما يهمنا.

فقالت رنزنب لنفسها: أجل، هذا كل ما يهمّنا.

ثم نظرت إلى كامني وكان قد مال برأسه جانباً وبدا على وجهه التوسل، وقد رأته في عنفوان الشباب فقالت لنفسها: هو على حق؛ لقد ماتت نوفريت أما نحن فعلى قيد الحياة، وقد فهمتُ الآن سبب بغضها لي، وكم يحزنني أنها قاست كثيراً! ولكن لم يكن

ذلك ذنبي؛ أجل، لم يكن ذنبي أن كامني أحبني دونها، وذلك يحدث كثيراً بين الناس.

كانت تيتي تلعب على شاطئ النهر فجاءت إلى أمها تقول: ألا نعود إلى البيت الآن؟

فقالت لها أمها بحسرة: أجل، سنعود إلى البيت الآن.

ثم ساروا صوب البيت، وكانت تيتي تجري أمامهما فقال كامني بارتياح: أنت سمحة الخلق يا رنزنب فوق كونك جميلة. هل ما زالت الصلة بيننا كما كانت؟

- نعم يا كامني.

- لقد كنت أشعر بالسعادة كثيراً عندما كنّا عند النهر.

- وأنا أيضاً.

فنظر إليها برهة ثم قال: أجل، لقد كانت السعادة بادية على وجهك، ولكنك كنت تفكّرين في شيء بعيد، وأريد أن تفكري فيّ أنا.

- لقد كنت أفكر فيك.

فأمسك يدها وأبقاها بين يديه، فلم تحاول جذبها، ثم شعر بها ترتجف في يده وبأنفاسها وقد ازدادت سرعة، فشعر بالطمأنينة.

* * *

دعت رنزنب حنة إلى غرفتها، فأقبلت هذه مسرعة فوقفت بين يدَيها ممتثلة، ثم فغرت فاها دهشة حين رأت علبة الحليّ

والتميمة المكسورة في يد رنزنب التي قالت لها: أنت التي وضعت هذه العلبة في غرفتي، أليس كذلك يا حنة؟ لقد كنت تريدين أن أجد هذه الحلية وأن...

فسارعت حنة إلى إتمام عبارة رنزنب قائلة: وأن تجدي نصفها الآخر، حسناً، ها أنت قد وجدتها.

ثم ضحكت ضحكة خبيثة فقالت لها رنزنب: أنت تسعدين بإيلام الناس يا حنة، ولا تصرّحين بما في داخلك، لكنك تصبرين وتصبرين حتى تأتي اللحظة التي ترضينها. أنت تكرهيننا جميعاً، وقد كنت تكرهيننا من قبل دائماً.

- أنا واثقة أنك لا تعنين ما تقولين.

ولكن صوت حنة كان يدل على الشماتة فقالت لها رنزنب: لقد أردت إحداث شقاق بيني وبين كامني، حسناً، فلتعلمي أنه لم يحدث بيننا شيء من ذلك.

- جميل منكِ أن تصفحي، فأنت تختلفين كثيراً عن نوفريت.

فأسكتتها قائلة: لا أريد أن أتحدث عن نوفريت.

- هذا خير لك. كامني حسن الحظ، كما أنه وسيم الطلعة، وقد كان من حسن حظه أن نوفريت ماتت في الوقت المناسب وإلاّ لأحدثت له متاعب شديدة عند أبيك، فما كانت لتوافق على زواجه بك لأنها ما كانت لتطيق ذلك، بل أعتقد أنها كانت ستجد وسيلة لمنعه.

فنظرت إليها ببغض ثم قالت: لسانك هذا ينفث السم دائماً

وله مثل لدغة العقرب، ولكن لا يمكنك أن تجعليني تعِسة.

فقالت حنة: هذا بديع، أليس كذلك؟ أنت متيَّمة حباً، والحقّ أن كامني شاب جميل، كما أنه يعرف كيف يغنّي أغاني الحب، وقد فاز دائماً بما أراد لأنه جَسور، وأنا معجَبة به حقاً.

فسألتها بحدّة: ماذا تريدين أن تقولي يا حنة؟

- أقول لك أنا معجبة بكامني، وأنا واثقة من أنه بسيط مستقيم ولا يتظاهر بذلك. المسألة كلها كإحدى القصص التي يرويها القُصّاص في الأسواق، فالكاتب الشاب الفقير يتزوج ابنة سيده ويقاسمها الميراث، ثم يعيشان في سعادة. ما أحسن حظ بعض الشبان ذوي الوسامة!

فنظرت إليها بازدراء ثم قالت: حقاً، لم يخب ظنّي فيكِ يا حنة، فأنت تكرهيننا من كل قلبك.

- كيف تقولين ذلك يا سيدتي؟ لقد خدمتكِ كالأَمَة المستعبَدة منذ ماتت أمك.

كان في صوتها رنين الظفر بدلاً من عويلها المعهود، فنظرت رنزنب ثانية إلى علبة الحليّ، وفجأة خطر لها خاطر آخَر فقالت لها: أنتِ أيضاً التي وضعت قلادة الأسد الذهبي في هذه العلبة. لا تنكري، فأنا أعلم ذلك يا حنة.

فزال مظهر الظفر فجأة من محيّاها وحلّ محله الرعب ثم قالت: لم يسعني سوى ذلك يا سيدتي، فقد كنتُ خائفة.

- وما الذي أخافك؟

فاقتربت منها حنة وقالت بصوت خافت: لقد أعطتني نوفريت هذه القلادة، كما أعطتني هدايا غيرها أيضاً. فقد كانت نوفريت سخية كما تعرفين، أجل، لقد كانت كريمة.

فهزّت رنزنب رأسها ثم قالت: لقد كانت تدفع لك أجراً عالياً.

- ليس جميلاً منك أن تنظري إلى الأمر هذه النظرة، ولكنني سأقول لك كل شيء عنه. لقد أهدت إليّ قلادة الأسد الذهبيّ ومشبكاً من حجر الجمشت وشيئاً آخَر أو شيئين، ولما جاء ذلك الغلام بقصته التي زعم فيها أنه رأى امرأة لابسة تلك القلادة خفت أن يُظَن أنني أنا التي وضعتُ السم في النبيذ ليحموز وسوبك، لذا وضعتُ القلادة في هذه العلبة.

فتأملتها ملياً ثم سألتها: أهذه هي الحقيقة يا حنة؟

- أقسم إنها الحقيقة... لقد كنت خائفة.

فنظرت إليها متعجبة وقالت: أنت ترتعشين يا حنة. لا شكّ أنك خائفة الآن، أليس كذلك؟

- بلى، أنا خائفة، وهناك أسباب تبرّر خوفي.

- وما هذه الأسباب يا حنة؟ أريد أن أعرفها.

فنظرت حنة حولها مرتاعة ولم تُجِب، فعادت رنزنب تقول لها: تكلمي، أخبريني يا حنة، ما هذه الأسباب؟

وبقيَت حنة مترددة بعض الوقت ثم قالت لها: ليس عندي ما أخبرك به.

- أنت تعرفين أكثر مما ينبغي يا حنة، وكنت تعرفين أكثر مما ينبغي دائماً، وكنت تستمتعين بذلك، ولكن ذلك قد أصبح خطراً عليك الآن.

فهزّت حنة رأسها ثم ضحكت بخبث ثم قالت: صبراً يا سيدتي، فأنا سوف أمسك بالسوط في هذا البيت يوماً ما وأضرب به... صبراً.

- أنت لن تستطيعي إيذائي يا حنة لأن روح أمي لا ترضى بذلك.

فتغيرت سحنة حنة وبدا الشر في عينيها ثم قالت: لقد كنتُ أبغض أمك، كنت أبغضها دائماً، وأنتِ لك مثل عينيها ومثل صوتها ومثل جمالها وتبجّحها. أنا أبغضك!

فضحكت رنزنب قائلة: أخيراً أرغمتك على أن تقولي الحق.

* * *

صار أمحوتب خيالاً لشخص سابق، فقد نحل جسمه وصار ضجِراً متبرماً، وقد ترك تفاخره واعتداده بنفسه وألقى جلّ اعتماده على رأي أمه وتدبيرها، وقد اجتمع بها قبل أن يفاتح رنزنب في أمر زواجها ليستشيرها في الأمر، فأمضت معه ساعة أو أكثر وهي تكدّ ذهنها وتقلّب الأمر على مختلف وجوهه، ثم وافقت أخيراً على أن زواج رنزنب مما تقتضيه الحكمة. وقد رأت أن الوقت لا يتسع للبحث عن أليق زوج لها بين شباب الأسرة، لا سيما أن مهمة الزوج المطلوب لن تتعدى إدارة الميراث الذي سيؤول إليها وإلى أطفالها. وعلى هذا انحصر البحث في اثنين من المرشَّحين لهذا

الزواج هما: حوري بحسبانه رجلاً مستقيماً صادق الودّ للأسرة وابن مزارع صغير من جيرانها في الأرض، وكامني الشاب الوسيم الذي يمتّ للأسرة بصلة القرابة.

وقد وازنَت بين هذا وذاك بعناية ودقة قبل أن تُدلي برأيها لأن كلمة واحدة في غير محلها كانت جديرة بأن تُحدث مأساة، ثم أفصحت عن رأيها بقوة فقالت: كامني هو الزوج اللائق لحفيدتي ولا ريب، وإذا شاءت رنزنب فإن عدة الزواج يمكن أن تتم خلال أسبوع مراعاة للحداد، أضف إلى ذلك أن كامني شاب لطيف، فإذا تزوجها فسينجبان أطفالاً أصحّاء.

ثم عادت العجوز إلى غرفتها من عند أمحوتب وهي تحدث نفسها بأنها تصرفت في ذلك الأمر على مقتضى من الحكمة وبما هو خليق بأن يؤدي إلى الطمأنينة والأمان، وعندما دخلت غرفتها نظرت حولها مرتابة، فاهتمّت بجرة النبيذ خاصة ففحصتها فوجدتها مغطّاة مختومة كما تركَتها، ودائماً كانت تختمها وتأخذ الختم معها معلَّقاً في رقبتها كلما غادرت الغرفة، فهي لن تجازف بحياتها، وليس من السهل أن تُقتل امرأة عجوز؛ فالعجائز يعرفن قيمة الحياة ويعرفن معظم الحيل كذلك.

وفي اليوم التالي سألت خادمتها الصغيرة: أين حوري؟

- أحسبه في المقبرة بالغرفة الصخرية.

فبدت في وجه إيزا دلائل الارتياح ثم قالت للخادمة: اصعدي إليه وأخبريه أنني أريده أن يقابلني هنا صباح غد، بعد أن يذهب أمحوتب ويحموز وكامني إلى الحقل، وبعد أن تذهب كيت إلى البحيرة مع أطفالها.

ثم قالت تحدث نفسها بعد انصراف الخادمة: أجل، يجب أن أبحث الأمر مع حوري على انفراد بعد أن أبعث بحنة إلى محلّ النسيج أيضاً، وسأخاطبه في كل ما يدور بذهني.

وعندما عادت الفتاة أخبرَتها أن حوري سينفّذ أمرها، فتنهدت بارتياح، لكنها ما لبثت أن شعرت بانتشار التعب في جسدها كله؛ فأمرت الفتاة بأن تُحضر لها الدهان المعطّر وأن تدلّك لها جسدها به، وسرعان ما ذهب ألم المفاصل الذي انتشر في عظامها، وأخيراً وافاها النوم فاستراحت من مخاوفها إلى حين.

وعندما استيقظت إيزا في صباح اليوم التالي عجبت من اشتداد البرد إلى حدٍ أفقد يدَيها وقدميها الإحساس، ثم خُيّل إليها أن الخمول ينتشر في جسدها كله وأن ذهنها قد شُلّ عن التفكير وأن قلبها قد أصبح يخفق ببطء، فقالت تحدث نفسها: أهذا هو الموت؟ هذا إذن موت عجيب ليست له مقدّمات ولم يأتِ به نذير! أهكذا يموت العجائز؟ حسناً، إنه ليس شيئاً مؤلماً على كل حال.

ثم خطر لها خاطر روّعها، فهذا ليس هو الموت الطبيعي، ولا ريب أن العدو قد دهمها في الظلام! هذا هو السم، ولكن كيف كان ذلك؟ ومتى؟ كل ما أكلته أو شربته قد فُحص أولاً وذاقه العبد حتى استوثقَت من خلوّه من السم، ولم يكن هناك منفذ لأيّ خطأ أو غفلة.

ثم حاولَت أن تكشف الأمر بالبقية الباقية من وعيها وذكائها. أجل، يجب أن تعرف قبل أن تموت. وإذا بها تشعر بزيادة الضغط في قلبها، ثم بالبرد القاتل، ثم بصعوبة التنفس... كيف استطاع العدو أن يفعل بها ذلك؟!

وفجأة لاحت لها الحقيقة الرهيبة من ذكرى قديمة، أجل، فروة خروف أُزيل منها الصوف، وكتلة من الدهن المعطّر. لقد كان أبوها يُجري تجاربه عليهما ليثبت أن بعض السموم يمكن أن ينتشر بالجلد. إذن فهذا الدهان الذي دُلّكَت به مصنوع من دهن الصوف، وهذا هو سبيل العدو إليها. لقد وَضع السم في وعاء الدهن المعطر الذي لا غنى للمرأة المصرية عنه، وغداً يأتي حوري فلا يعلم، ولا تستطيع إخباره بما حدث.

وفي الصباح جرت الأَمَة الصغيرة حول البيت تصيح: سيدتي إيزا... لقد ماتت سيدتي وهي نائمة!

* * *

وقف أمحوتب ينظر إلى جثمان أمه بادي الحزن، ثم أعلن لمَن حوله أنه لا يشك في أنها ماتت ميتة طبيعية متأثرة بالشيخوخة، ثم مضى فقال: أجل، لقد كانت كبيرة السن، وحان الوقت لأن تذهب إلى أوزيريس، ولا شكّ أن أحزاننا ومتاعبنا قد عجّلت بنهايتها، ويبدو أن الموت قد واتاها في هدوء. لحسن الحظ أنها ماتت ميتة طبيعية دون تدخّل إنسان أو روح شريرة، فليس للعنف أثر. انظروا ما أهدأها في رقدتها!

وأخذت رنزنب تبكي وأخذ حوري يواسيها، ومضت حنة تتأوه وتهزّ رأسها وتقول: موت إيزا خسارة، لقد كنتُ أحبها وأخلص لها.

وكفّ كامني عن الغناء وأبدى دلائل الألم، وكان حوري قد جاء إلى إيزا في الساعة المحدَّدة للقائها، فوجدها جثة هامدة، فسأل نفسه: تُرى ماذا كانت تريد أن تقوله لي على انفراد؟ لقد

صمتت إلى الأبد قبل أن تُفضي إليّ به، ولكن أليس من الممكن أن أستنتج؟

* * *

الفصل الرابع عشر

سألت رنزنب حوري وعيناها مغرورقتان بالدموع: أتظن يا حوري أن إيزا ماتت مقتولة؟

- هذا ما أعتقده يا رنزنب.

- لكنها كانت حذرة فاتخذت كل حيطة ممكنة، وكان كل ما تأكله أو تشربه يُفحص ويجرَّب أولاً.

- أعرف ذلك يا رنزنب، ومع ذلك فقد قُتلت إيزا لا شكّ في ذلك.

- لقد كانت أكثرنا جميعاً فطنة ودهاء، وكانت واثقة من أن أيّ أذى لن يصل إليها. لا شكّ أنه السحر يا حوري، السحر السيّئ من روح شريرة.

- أنت تعتقدين ذلك لأنه أيسر ما يعتقده الإنسان، والناس دأبهم ذلك دوماً، لكن إيزا نفسها ما كانت لتؤمن به.

- هل كانت ترتاب في أحد؟

- نعم، لقد أبدت ارتيابها من قبل، ومنذ ذلك أصبحَت خطراً على العدو، وكونها ماتت يدلّ على أن ارتيابها كان في محله.

- وهل أخبرتكَ من هو؟

- لا، لم تخبرني بشيء ولم تذكر اسم أحد مطلقاً، ومع ذلك أعتقد أننا اتفقنا في التفكير، أنا وهي.

- إذن يجب عليكَ أن تخبرني يا حوري حتى أكون على حذر.

- لا؛ شدّة اهتمامي بسلامتك تمنعني من أن أخبرك.

فنظرت إليه نظرة واجمة ثم قالت له: هل أنا في أمان؟

فبان الكدر على وجهه ثم قال: لا، لا أحد هنا في أمان، ولكنني آمن على نفسك الآن منك إذا عرفتِ الحقيقة، لأنك في تلك الحالة تكونين خطراً على العدو، وعندها سيبادر إلى إزالة ذلك الخطر.

- وأنت يا حوري، ألا تعرف مَن ذلك العدو؟

- أظن أنني أعرفه، لكنني لم أقُل شيئاً ولم يصدر عنّي أيّ شيء يدل على ذلك. لقد تخلّت إيزا عن فطنتها حين كشفَت في كلامها عمّا تعرفه ودلّت على اتجاه فكرها، وقد قلتُ لها هذا صراحة.

ثم تركها ومضى فهتفت به قائلة: حوري، حوري، إلى أين أنت ذاهب؟

فالتفت إليها وقال بهدوء: إلى الحقول مع يحموز؛ أمامنا عمل كثير يجب يؤدّى ويدوَّن، فقد أوشك الحصاد على التمام.

- وهل سيذهب معكم كامني أيضاً؟

- نعم، سيذهب كامني معنا.

فصاحت رنزنب قائلة: أنا أخشى أن أبقى هنا. أجل، أنا خائفة حتى في رابعة النهار، وبرغم وجود الخدم من حولي.

فعاد إليها حوري في خطى وئيدة متزنة ثم همس إليها قائلاً: لا تجزعي؛ فليس هناك أيّ سبب للجزع.

فنظرت إليه عابسة ثم قالت: لستُ أنا المهدَّدة أولاً، أهذا ما تعنيه؟

- اجتهدي ألاّ تفكري في الأمر يا رنزنب، فأنا أفعل كل ما في استطاعتي الآن، وإن كان يبدو لك أنني لا أفعل شيئاً.

- فهمت، الدور على يحموز أولاً، فقد حاول العدو أن يقتله بالسم ففشل والآن سيحاول مرة ثالثة، ولهذا تصحبه أنت ولا تفارقه لكي تحميه، وبعد ذلك يجيء دور أبي ثم دوري. من ذا الذي يبغض أسرتنا إلى حد أن...

فقطع حوري كلامها وقال بحزم: اسكتي ولا تتكلمي عن ذلك. ثقي بي يا رنزنب.

- أنا أثق بك يا حوري، لا تدعني أُقتَل؛ أنا أحب الحياة، ولا أريد أن أتركها قبل الأوان.

- اطمئنّي، لن تتركي الحياة على الصورة التي تخشينها.

* * *

جلست رنزنب ترقب كيت وهي تعاون أطفالها على صنع دميً من الطين، وكانت أصابعها مشغولة بالعجن والتشكيل،

ووجها -كالعادة- خالياً من كل تعبير، ولم يبدُ عليها أيّ تأثّر من الجو المملوء حولها بالموت والخوف، وقد نصح حوري رنزنب بعدم التفكير، لكنها لم تستطِع اتباع هذه النصيحة، فإذا كان حوري يعرف مَن العدو، وإذا كانت إيزا قد عرفته، فلماذا لا تعرفه هي كذلك؟ ربما كان الأفضل لها -كما يقول حوري- ألاّ تعرفه، ولكن مَن في مثل موقفها يمكن أن يقتنع بذلك؟ كانت تريد أن تعرف، ولا شكّ أن الأمر سهل واضح؛ فأبوها -بداهةً- لا يمكن أن يرغب في قتل أبنائه، فإذا تركت أباها جانباً فمن يبقى إذن؟ لا يبقى أحد يمكن أن يُشتبه به سوى كيت وحنة، لكن كيت وحنة امرأتان ضعيفتان، ولا شكّ أنهما أعجز من أن ترتكبا تلك الجرائم الفظيعة، أضف إلى ذلك أنه ليس لإحداهما أيّ باعث معقول يدفعها إلى اقتراف الجرائم المذكورة.

ثم قالت رنزنب لنفسها: حنة تبغض الجميع، أجل، لا ريب أنها تبغضهم. قد صرّحت لي بأنها تمقتني، فلماذا لا تمقت الآخرين كذلك؟ ولكن، ل تكره حنة أمحوتب أيضاً؟ لا، لقد ظلت سنوات تتملقه وتبدي له جانب الذلّ والمسكنة، وهو يعتقد في سذاجتها وإخلاصها، ولا ريب أن هذا الإخلاص لا يمكن أن يكون كله رياءً وكذباً. ولكن إذا كانت حنة مخلصة لأمحوتب، فكيف يمكن أن تقتل أولاده وتسبب له كل ذلك الحزن والألم؟ لعلها أبغضته هو أيضاً، أو لعلها كانت تبغضه منذ البداية وتتملقه لتتبيّن ضعفه.

كانت رنزنب جالسة مشغولة الذهن بهذه الأفكار في حين كانت كيت منصرفة عنها إلى ملاعبة الأطفال، وأخيراً لاحظت طول إطراقها وصمتها فسألتها: ماذا بكِ يا رنزنب؟ أنت غريبة

الأطوار حقاً.

فوقفت وقالت: هذا الجو الذي نعيش فيه مخيف!

فردّت كيت دون اهتمام: آه، هذا فقط؟

فدُهشت رنزنب لعدم الاكتراث البادي عليها ثم سألتها: ألستِ خائفة يا كيت؟

- خائفة؟ لا، أنا لست خائفة؛ فإذا حدث شيء لأمحوتب فالأطفال سيحميهم حوري، فحوري رجل شريف وسيحرس ميراثهم لهم.

- لكن يحموز هو الذي سيتولّى أمرهم.

- يحموز سيموت أيضاً.

- عجباً! كيف تقولين ذلك بهدوء؟!

ففكرت كيت لحظة ثم هزّت كتفيها وقالت: نحن امرأتان معاً، وسأصدقك القول. أمحوتب كان مستبداً ظالماً دائماً، فقد أساء التصرف لأنه اتخذ لنفسه زوجة وخضع لتحريضها إياه بأن يحرم أبناءه من الميراث. أنا لم أحب أمحوتب قط، أمّا يحموز فهو لا شيء، فقد كانت ساتيبي تسيطر عليه من كل الوجوه، وبعد وفاة ساتيبي صار يستخدم سلطته ويصدر الأوامر، لكنه بالطبع سيُؤْثر أولاده على أولادي، ولذلك ففي موته خير لأولادي، وهذا ما أراه أنا. حوري لا أولاد له وهو عادل. لا شكّ أن هذه الحوادث مروّعة، ولكنني فكرتُ فرأيت أنها خير.

فازدادت دهشة رنزنب ثم عادت تسأل: أنت عجيبة يا

كيت! هل نسيت أن زوجك الذي كنتِ تحبينه كان أول القتلى في البيت؟

فنظرت إليها كيت نظرة لم تخلُ من سخرية ثم قالت: تبدين مثل تيتي أحياناً يا رنزنب، حتى أكاد أقسم أنك طفلة مثلها.

- أنت غير حزينة على سوبك!

- لقد اتبعتُ التقاليد بحذافيرها، وأعرف كيف يكون مسلك الأرملة التي مات زوجها حديثاً.

- أجل، وقد وقف الأمر عند هذا الحد.

فهزّت كيت كتفيها ثم قالت: لماذا كان ينبغي لي أن أحبه؟

- ألم يكن زوجك وأباً لأطفالك؟

فرقّت ملامح وجه كيت ثم نظرت بعطف وحنان إلى طفليها الصغيرَين وهما يلعبان بدُمى من الطين، ثم انتقلت بنظرتها إلى عنخ وهي تمشي بصعوبة وتغنّي وترفع ساقَيها الصغيرتين، ثم التفتت بعد ذلك إلى رنزنب وقالت لها: بلى، هو أبو أطفالي، وأنا أحمد له ذلك، ولكن ماذا كان غير ذلك؟ لقد كان شاباً طائشاً وسيماً، وكان يذهب إلى النساء الأخريات دائماً، كان يذهب إلى بيوت سيئة السمعة وينفق فيها كثيراً من الذهب والنحاس، وكان يشرب الخمر ويطلب أغلى الراقصات أجراً، وقد كان من حسن الحظ أن أمحوتب كان لا يترك له العنان وكان يحاسبه حساباً عسيراً على ما يبيعه من منتجات المزرعة. أيّ حب وأيّ احترام كان يمكنني أن أُكنّهما لرجل من هذا الطراز؟ ومَن الرجال على أية حال؟ مهمتهم أن ينجبوا أطفالاً وهذا كل ما في الأمر، ولكن نحن النساء نعطي

أولادنا كل ما نملك.

كان صوت كيت وهي تقول ذلك مليئاً بالاحتقار وقد تغيرت سحنة وجهها القوي القبيح، ففكرَت رنزنب وقالت لنفسها: كيت قوية، وإذا كانت غبية فهو غباء الرضا عن النفس، وهي تكره الرجال وتحتقرهم، وكان ينبغي لي أن أعرف ذلك، فقد لمحتُ مرّة من قبل بارقة من حنقها ووعيدها. أجل، كيت قوية!

ثم وقع نظرها دون قصد على يدَي كيت حين كانتا تعصران الطين وتعجنانه، وكانتا يدين قويتين ذواتَي عضلات متينة، فراقبتهما رنزنب وهما تدفعان الطين، ثم تذكرت إيبي ويدَين قويتين تدفعان رأسه إلى الماء وتمسكان به فيه حتى اختنق ومات، ثم قالت لنفسها: يدا كيت لا تعجزان عن ذلك.

وحدث بعدئذ أن سقطت عنخ الصغيرة وتدحرجت وأخذت تصرخ، فأسرعت أمها إليها تحملها وتحتضنها وتحنو عليها وقد تمثل الحنان في ملامحها، ثم جاءت حنة من الشرفة وتقول: هل حدث شيء؟ الطفلة تصرخ بشدة. لقد ظننت أنه ربما...

وصمتت فجأة وكأنما ساءها ألاّ يتحقق ما توقعته من حدوث شر جديد، ونقلت رنزنب بصرها بين المرأتين، فرأت البغض في عينَي إحداهما وحب الأمومة في عينَي الأخرى.

* * *

وقفت رنزنب أمام أخيها يحموز ثم قالت له: يجب أن تحذر من كيت يا يحموز.

فقال لها بدهشة: كيت؟! ماذا تقولين يا أختاه؟

- نعم، ينبغي أن تحذر من كيت؛ فهي خطرة أكثر مما نظن جميعاً.

فصمت قليلاً وفكّر هنيهة ثم قال: كيت امرأة وديعة خاضعة ليس لها حظ من الذكاء، وهي...

فقطعت كلامه قائلة: إنها ليست وديعة ولا خاضعة. أنا خائفة منها وأريد أن تأخذ حذرك.

فابتسم وقال: آخذ حذري ممّن؟ أنا لا أستطيع أن أتصور كيت تقتل وتنشر الرعب؛ فليس لها الذكاء اللازم لذلك.

- الأمر ليس أمر ذكاء، بل تكفي مجرد المعرفة بالسموم، وأنت تعرف أن بعض الأسر لها معرفة بها، حيث تتوارثها البنت عن الأم، وهنّ يستخرجنها من بعض الأعشاب، وهو نوع من العلم يسهل على مثل كيت أن تتلقاه. هل نسيتَ أنها تستخرج الأدوية من الأعشاب لأطفالها عندما يمرضون؟

فقال يحموز بعد تفكير: هذا صحيح.

ثم عادت رنزنب تقول: وكذلك حنة امرأة شريرة، فاحذرها أيضاً.

- أما هذه فنحن لم نحبها قط، ولولا حماية أبي لها...

فنظرت إليه بدهشة، فقد كانت هذه أول مرة تسمعه فيها ينتقد أباه بعد أن كان دائماً شديد الحرص على ألاّ يمسه بأيّ نقد، ثم قالت لنفسها: يحموز يستولى على السلطة تدريجياً الآن، فقدْ فقدَ أمحوتب نشاطه في الأسابيع الأخيرة وصار يقضي الساعات وهو يحملق أمامه شارد الذهن، وأحياناً لا يفهم ما يُقال له.

قالت رنزنب ليحموز وهي تنظر حولها: أتظن أنها هي... هي التي...؟

فأمسك يحموز بذراعها وقال: اسكتي يا رنزنب. هذه الأشياء لا يصحّ التحدث عنها، ولا حتى همساً.

* * *

كان اليوم التالي يوم عيد القمر الجديد، فصعد أمحوتب إلى المقبرة في ساعة مبكرة من الصباح ليقدّم الهبات المعتادة، وقد اقترح يحموز أن يتولّى عنه القيام بهذه المهمة، لكنه أبى وأصرّ على أن يؤدي تلك المراسم بنفسه، فقال له بصوت واهن: يجب أن أؤدّي هذه المهام بنفسي لأطمئنّ إلى أنها تؤدّى كما يجب. هل فررتُ قط من القيام بواجباتي؟ ألم أعلمكم جميعاً وأُعنَ بكم...؟

وتوقف عن الكلام هنيهة ثم قال: جميعاً؟ لقد نسيتُ أن ولدَيّ الجريئَين سوبك وإيبي قد ذهبا ولم يبقَ لي إلا أنت يا يحموز وأختك رنزنب! أجل، لقد بقيتما يا ولدَيّ العزيزَين، لكن إلى متى؟ هذا ما لا أدريه.

ثم تنهّد وأطرق مفكراً فقال له يحموز بصوت مرتفع: سنبقى سنوات عديدة.

فغمغم أمحوتب بعبارة غير مفهومة ثم رفع صوته قليلاً وقال: حنة تفهمني، وقد كانت تفهمني دائماً وتقدّر عِظَم تبعاتي، ولقد كانت حنة متواضعة ذليلة مخلصة دائماً، وسأكافئها على ذلك.

ثم صمت مرة أخرى، ولكنه قال فجأة: أفاهم أنت يا

يحموز؟ يجب أن يكون لحنة كل ما تريده، يجب أن تكون أوامرها مطاعة.

فقال يحموز بدهشة: أوامر حنة يجب أن تطاع! حسناً، ولكن لِمَ هذا يا أبي؟

- هذا ما أريده. إرادة حنة متى نُفّذت فلن تسقط ضحايا جديدة.

ثم خرج تاركاً يحموز ورنزنب ينظر كل منهما إلى الآخَر بدهشة وانزعاج، فقالت لأخيها أخيراً: ما معنى ذلك يا أخي؟!

- لا أدري، أنا أظن أن أبانا لا يفقه ما يقوله أحياناً.

- ربما كان كذلك، ولكن حنة تعرف تماماً ما تقوله وما تفعله. لقد ذكرَت لي منذ وقت وجيز أنها هي التي ستمسك بالسوط في هذا البيت.

مضت فترة وهما صامتان وكل منهما ينظر إلى الآخَر، ثم وضع يحموز يده على ذراع أخته وقال لها: لا تُغضبيها، فأنتِ تُظهرين عواطفك أوضح مما ينبغي يا أختاه.

- لكنك قد سمعتَ ما قاله أبونا الآن، إذا نُفّذت إرادة حنة فلن تسقط ضحايا جديدة.

* * *

كانت حنة جاثمة في إحدى غرف المخزن تُعدّ أكداساً من الملاءات القديمة، ثم توقفت عن العدّ وأدنت إحداها من عينيها متأمّلة العلامة الموضوعة عليها فقالت تحدث نفسها: هذه ملاءات

عشايت، وهذه علامة السنة التي جاءت فيها وأنا معها إلى هذا البيت. لقد كان ذلك منذ زمن بعيد.

شعرت حنة بوقع قدمين وراءها، فارتاعت ونظرت خلفها فرأت يحموز فسألها: ماذا تفعلين يا حنة؟

- لقد طلب المحنّطون ملاءات أخرى، ولقد طلبوا أمس أكداساً من الملاءات استعملوا منها أربعمئة ذراع. هذه الجنازات تتطلب ملاءات لا عدد لها، والآن علينا أن نستخدم هذه الملاءات القديمة، وهي من صنف جيّد ولم يصِبها البلى. إنها ملاءات أمك يا يحموز.

- من الذي سمح لك بأخذ هذه الملاءات؟

فضحكت وقالت: لقد عهد أمحوتب إليّ في كل شيء، فأنا لست في حاجة لأن أستأذن أحداً. إنه يثق بحنة العجوز المسكينة ويوقن بأنها حسنة التصرف. أراكَ قد قمتَ تنظّم العمل في هذا البيت، وأظنني سأتلقى جزائي على ذلك الآن.

فقال يحموز بصوت هادئ: هذا ما فهمتُه أخيراً، وقد ذكر أبي أن كل شيء يتوقف عليك.

- هل قال أمحوتب ذلك؟ يسرّني أن أسمع هذا، ولكن ربما لا يكون هذا متفقاً مع رأيك، أليس كذلك؟

فقال يحموز بلهجة معتدلة وهو يرقبها عن كثب: الواقع أنني لم أكوّن لي رأيا في هذا بعد.

- من الخير لكَ أن يتفق رأيك مع رأي أبيك يا يحموز، فنحن لا نريد متاعب جديدة، أليس كذلك؟

فسألها: لستُ أفهم ما تقصدين. أتعنين أننا لا نريد ضحايا جديدة؟

- ضحايا جديدة؟ لا أدري، لكنني أشعر بأن شيئاً منها سيحدث؟

فسألها: إذن من الذي عليه الدور الآن يا حنة؟

فبُهتت ثم قالت: أتظن أنني أعرف؟ ما الذي يجعلك تظن هذا يا يحموز؟

فقال لها: أنا أعتقد أنك تعرفين أموراً كثيرة. ألم تعرفي أن إيبي سيموت؟ أنت داهية يا حنة ولا شكّ.

فقالت بصراحة: حسناً يا يحموز، يسرّني أنك بدأت تدرك ذلك الآن. أنا لم أعد حنة الغبية المسكينة التي لا تعرف شيئاً، بل أنا وحدي التي أعرف كل شيء.

فسألها: ماذا تعرفين يا حنة؟

فقالت بحدّة: أعرف أنني أستطيع أن أفعل ما أشاء في هذا البيت، وأعرف أن أحداً لن يستطيع أن يقف في طريقي؛ فأمحوتب لا يعتمد إلاّ عليّ، وأنت ستفعل مثله يا يحموز، أليس كذلك؟

- ورنزنب؟

فضحكت بخبث وقالت: رنزنب لن تكون هنا.

- أتظنين أن رنزنب هي التي عليها الدور في الموت؟

- ماذا تظن أنت يا يحموز؟

- أنا أنتظر ما تقولينه أنت.

- أنا لم أقصد سوى أن رنزنب ستتزوج وتذهب بعيداً.

فسألها: وماذا تعرفين غير ذلك؟

فضحكت ضحكة مكتومة ثم قالت: لقد ذكرَت إيزا لي يوماً أن لساني خطر، ولعله كذلك.

ثم ضحكت ضحكة عالية اهتزّ جسدها معها ثم قالت: حسناً يا يحموز، وما رأيك؟ ألم يأنِ لي أن أفعل ما أشاء في هذا البيت؟

فنظر إليها يحموز نظرة فاحصة ثم قال: بلى يا حنة، أنت داهية وستفعلين ما يحلو لك في هذا البيت!

ثم خرج ليقابل حوري الذي كان قادماً من القاعة الكبرى، فلما رأى يحموز قال له: أهذا أنت يا يحموز؟ أمحوتب ينتظرك للصعود إلى المقبرة.

فأومأ برأسه موافقاً ثم قال: أنا ذاهب إلى هناك.

ثم خفض صوته وقال له: اسمع يا حوري، يخيَّل إليّ أن حنة قد جُنّت، وقد بدأتُ أظن أنها المسؤولة عن كل ما حدث.

فسكت حوري لحظة ثم قال بهدوئه المعتاد: حنة امرأة عجيبة، وهي شريرة كذلك كما أعتقد.

فقال يحموز بصوت أكثر خفوتاً: أظن أن رنزنب في خطر يا حوري.

فتساءل حوري قائلاً: في خطر من أيّ شيء؟ من حنة؟

– نعم، فقد فهمتُ من كلامها أن رنزنب قد يكون الدور عليها في الموت.

وهنا سمعا أمحوتب يصيح قائلاً: هل أنتظر طوال اليوم؟ أيّ سلوك هذا؟ لم يعُد أحد يهتم بي ولا يقدّر ما أقاسيه! أين حنة؟ هي التي تفهمني.

فارتفع صوتها من داخل غرفة المخزن وهي تقول: أسامع أنت يا يحموز؟ حنة هي الوحيدة التي يُعتمد عليها.

ذهب حوري ليلقى أمحوتب، وقال يحموز بضع كلمات لحنة فأومأت برأسها موافقة وقد بان في عينيها بريق الظفر والشر، ثم لحق يحموز بأمحوتب وحوري، وذهب الرجال الثلاثة إلى المقبرة.

* * *

مضى اليوم بطيئاً ثقيلاً على رنزنب، وقد كانت قلقة تنتقل بين البيت والشرفة، ثم منها إلى البحيرة، ثم من البحيرة إلى المنزل. وعند الظهر رجع أمحوتب فتناول غداءه ثم جلس في الشرفة، ثم جاءت رنزنب فجلسَت معه واضعة يدَيها على ركبتيها، وكانت تنظر إلى وجه أبيها بين الفينة والفينة متفكرة فيما يرتسم على ملامحه من علامات الدهشة وشرود الذهن، وكان قليل الكلام، لكنه نهض فجأة ثم سأل: أين حنة؟

وكانت حنة قد ذهبت بالقماش إلى المحنّطين، فعاد أمحوتب إلى مجلسه وإطراقه، فسألته رنزنب: أين حوري ويحموز؟

فأجاب قائلاً: لقد ذهب حوري إلى حقل الكتّان البعيد

ليُجري بعض الحسابات، أما يحموز ففي المزرعة. العبء يقع كله الآن على كاهله، واأسفاه على سوبك وإيبي ولدَيّ العزيزَين، ولديّ الجميلَين.

فحاولت رنزنب أن تشغله عن فجيعته في أخوَيها فقالت له: ألا يستطيع كامني أن يشرف على العمال؟

فنظر إليها بدهشة وقال: كامني؟ من يكون كامني هذا؟ ليس لي ولد بهذا الاسم.

- كامني الكاتب يا أبي، والذي اخترته أنت زوجاً لي.

فأخذ ينظر إليها متفرساً ثم قال بدهشة وذهول: ماذا تقولين؟ أنت سوف تتزوجين خاي!

فتنهدت رنزنب أسفاً وحزناً ولم تقُل شيئاً، فقد وجدت من القسوة أن تذكّر أباها بالحقيقة التي ذُهل عنها. وبعد بُرهة وقف أمحوتب فجأة وقال: كامني ذهب ليصدر تعليمات إلى المشرف على معمل النبيذ ويجب أن أذهب لألحق به.

ثم انطلق خارجاً في خطوات متزنة وقد عاوده عزمه القديم، فتنفست رنزنب الصعداء وقالت تحدث نفسها: لعل ذلك الذهول الذي غشى ذهنه قد ذهب عنه.

ثم نظرت حولها وقد بدا لها البيت موحشاً، وكان الأطفال عند طرف البحيرة البعيد ولم تكن كيت معهم، فستاءلت رنزنب: كيف تركتهم كيت يلعبون وحدهم؟ أين هي الآن؟!

ثم خرجت حنة من البيت إلى الشرفة وهي تنظر حولها، فلمّا رأت رنزنب استعادت لهجة الذلّ والمداهنة وقالت: لقد انتظرتُ

حتى أستطيع أن أجدك وحدك يا رنزنب؟

- لماذا يا حنة؟

فخفضت صوتها وقالت: عندي رسالة لك من حوري.

فقالت رنزنب بلهفة: ماذا يريد؟

- يطلب منك أن تصعدي إليه في المقبرة.

- أيريد أن أفعل ذلك الآن؟

- لا، بل قبل ساعة من الغروب، هذه هي رسالته، وقد ذكر أنه ربما لا يكون هناك وقتئذ، لذا يرجو منكِ أن تنتظريه هناك حتى يأتي لأهمية الأمر الذي يريدك من أجله.

وصمتت لحظة ثم قالت: لقد انتظرتُ حتى أجدك وحدك لأبلغك هذه الرسالة لأنه ينبغي ألاّ يعلم بها أحد.

شعرت رنزنب بارتياح لفكرة ذهابها إلى المقبرة حيث الهدوء والسكينة ولقاء حوري هناك والتحدث معه، ولكنها عجبت قليلاً من أنه أسرّ إلى حنة بهذه الرسالة، ثم قالت لنفسها: ما الذي أخشاه من حنة؟ أنا أقوى منها.

ثم نصبت قامتها بكبرياء شاعرة بشبابها مطمئنة إلى الحياة، وعادت حنة إلى مخزن القماش وهي تضحك مسرورة بعد أن أبلغت تلك الرسالة إلى رنزنب، ثم انحنت فوق كومة من الملاءات وقالت: سنحتاج إلى مقدار آخَر من هذه الملاءات.

ومضت تعدّها، ثم تتوقف عن العد بين الحين والحين لتدني إحداها من عينيها وتقول: أتسمعين يا عشايت؟ أنا سيدة البيت

الآن، وأنا التي تقول لكِ إن قماشك هذا سيلفّ جسماً آخَر، وأي جسم هو؟ أتعرفين؟

ثم سمعت حركة وراء أكداس الكتّان، فأدارت رأسها لتتبيّن الأمر، فبُسطت ملاءة عريضة من الكتّان فوقها فجأة فكتمت فمها وأنفها، ثم أخذت يد صلبة تلف القماش حتى خمدت حركتها.

* * *

الفصل الخامس عشر

جلست رنزنب عند مدخل الغرفة الصخرية تنظر إلى النيل وقد استغرقت في تفكير عميق، فقد بدا لها أنه انقضى زمن طويل منذ جلست هناك لأول مرة بعد عودتها إلى بيت أبيها، وتذكرت قولها يومذاك إن كل شيء باقٍ كما تركَته منذ ثماني سنوات، كما تذكّرت أن حوري عارضها وذكر لها أنها هي نفسها لم تعُد رنزنب التي ذهبت مع خاي، فردّت عليه بأنها لم تتغير، لكنه أخذ يحدثها عن التغيير الذي يأتي من الداخل، وعن الفساد الذي لا تنمّ عنه ظاهرة خارجية، والآن هي تعرف بعض ما دار بخلده بعد أن وقع ما وقع من الكوارث، فهو بلا شك قد أراد أن يُعدّ ذهنها لذلك، فقد كانت ساذجة واثقة بالناس مطمئنة إلى الظواهر الخارجية لأسرتها، ولم يفتح عينيها على ما وراء هذه الظواهر سوى مجيء نوفريت.

ومضت رنزنب تحدّث نفسها قائلة: أجل، مجيء نوفريت هو المحور الذي دار حوله كل ما حدث، ومع نوفريت جاء الموت إلى هذه الدار، وسواء أكانت نوفريت شريرة أم لا فقد جلبت معها الشر، هذا ممّا لا شكّ فيه، بل مازال هذا الشر جاثماً في البيت وسط أفراد الأسرة.

ثم خطر لرنزنب مرة أخرى أن كل ما حدث إنما كان بسبب

روح نوفريت الحائرة المؤذية الراغبة في الانتقام، لكن هذا الخاطر ما لبث أن حلّ محله خاطر آخَر، وهو أن حنة الحقودة المحبة للأذى ما زالت على قيد الحياة. وشعرت برجفة تعتري جسدها، فنهضت واقفة تنظر حولها وتحدّث نفسها بقولها: لا أستطيع أن أنتظر حوري أكثر ممّا انتظرت. لقد آذنَت الشمس على المغيب، فلماذا لم يأتِ؟

ثم شرعت تهبط الدرب المنحدر صوب الوادي السحيق، وكان الهدوء يشمل المكان، وسرّها ما حولها من سكون وجمال، ولكنها بقيت تسائل نفسها: لماذا تأخّر حوري؟ لو أنه جاء لقضيتُ معه ساعة أسعدُ فيها بالاطمئنان إلى حديثه الذي لن يُتاح لي أن أستمع له بعد أن أُصبح زوجة لكامني. ولكن هل أتزوج كامني حقاً؟

أفاقت فجأة من ذهول الاستسلام الذي غمرها طويلاً وشعرت بما يشعر به النائم الذي استيقظ فجأة من سبات عميق وحلم مفزع؛ فهي برغم ما كانت فيه من خوف وشك قد رضيَت بكل ما عُرض عليها، ولكنها عادت إلى نفسها في تلك اللحظة.

إذا كانت ستتزوج كامني فيجب أن يكون ذلك من رغبة حرة لها، لا لأن أسرتها قد أرادت لها هذا الزواج. كامني الوسيم ذو الوجه الضاحك، إنها تحبه، أليس كذلك؟ ولهذا السبب ستتزوجه. لقد شعرت رنزنب بأن شخصيتها الأولى عادت إليها في تلك الساعة، ساعة الغروب، فوق ذلك المرتفع، ولم تجد هناك ما يدعو إلى الحيرة أو الاضطراب والخوف، ومن أيّ شيء تخاف؟

لقد قالت لحوري يوماً إنها تودّ لو تسير وحدها في هذا

الدرب، وفي وقت الأصيل الذي ماتت فيه نوفريت؟ وإنها سواء أطرق قلبها الخوف أم لم يطرقه فإنه ينبغي أن تمشي هناك وحدها؟ حسناً، هي تفعل ذلك الآن، وفي مثل هذه الساعة انحنت هي وساتيبي على جثمان نوفريت، وفي مثل هذه الساعة أيضاً كانت ساتيبي تهبط الدرب فنظرت خلفها بغتة فرأت القضاء المحتوم، وقد كان هذا وذاك في هذا الموضع نفسه من الدرب. تُرى ما الذي سمعَته ساتيبي فجعلها تستدير لتنظر خلفها؟ لعلها سمعت وقع أقدام؟

وهنا شعرت رنزنب بأنها هي نفسها تسمع وقع أقدام تتبعها في الدرب، فارتعد جسدها فجأة حين تملّكها الخوف، فقد خطر ببالها أن نوفريت وراءها تتبعها، لكنها برغم الرعب الشديد الذي استولى عليها لم تبطئ من خطاها ولم تُسرع، بل أخذت تستجمع قواها الخائرة عازمة على التغلب على الخوف والخطر أياً كان مصدره، ثم حدثت نفسها قائلة: ما الذي أخشاه؟ أنا لم آتِ أمراً أحاسَب عليه.

وهكذا واتتها شجاعتها فنظرت خلفها وهي لا تزال تسير، وعندئذ شعرت بالطمأنينة تحلّ فجأة محلّ الخوف؛ فقد كان يحموز هو الذي يتبعها وليس روح نوفريت الميتة، ولكنه أخوها الحبيب، لا بدّ أنه كان مشغولاً في غرفة الصدقات بالمقبرة وأنه خرج منها بعد مرورها، فوقفت تصيح صيحة فرح: يحموز، يسرني أنه أنت.

كان قادماً نحوها مسرعاً، ثم بدأت تقول له جملة أخرى تشرح فيها ما كان قد ساورها من خوف لا أساس له، وإذا بالكلمات تجمد على شفتيها! ذلك القادم لم يكن يحموز الذي

تعرفه، ليس أخاها الشفيق الوديع... أجل؛ هذا الذي تراه عيناه تلمعان ولسانه يبلّل شفتيه ويداه ممدودتان قليلاً أمام جسمه، وقد انحنى إلى أسفل وأصبحت أصابعه مثل المخالب!

كان ينظر إليها نظرة لم تخطئ فهمها، فقد كانت نظرة قاتل تعوّد القتل، وكانت ملامحه تنطق بالقسوة والإثم والشر ووجهه ينمّ عن الرضا لأنه ظفر بفريسته... وتجلّت لها الحقيقة المرة فجأة؛ العدو الخفي هو يحموز، هذا الوحش المستتر وراء قناع الوداعة واللطف والشفقة! كانت تعتقد أن يحموز يحبها، لكن الحب لا يمكن أن يكون خلف مثل هذه السحنة المقلوبة التي تشبه سحنة الشيطان.

أطلقت رنزنب صرخة ضعيفة يائسة وقد أدركت أن هذا هو الموت وأنها ليس لها قوة تغالب قوة يحموز، فهي لا بدّ ساقطة بعد لحظة حيث سقطت نوفريت وساتيبي من قبل في هذا الوضع نفسه من الدرب.

فجأة استطاعت أن تجد صوتها وأن تصرخ هاتفة باسم يحموز، وكان صوتها ينمّ عن كل ما كانت تُكنّه من الحب لأخيها الأكبر، ولكن ماذا يفيد الحب والتوسل؟ لقد ضحك يحموز ضحكة صغيرة ناعمة لا كضحكة البشر، ثم اندفع نحوها ويداه ممدودتان وأصابعه منحنية لتطبق على عنقها، فوقفت مسندة ظهرها إلى صخرة هناك، ثم مدّت يدَيها المرتعشتين محاولة أن تدفع عن نفسها ذلك الموت الداهم.

فجأة سمعَت صوتاً ضعيفاً له رنين كرنين الموسيقى، وطار في الهواء شيء لم تتبينه تماماً، ثم وقف يحموز فترنّح، ثم صرخ

صرخة عالية وخرّ ساقطاً عند قدميها.

ونظرت رنزنب إليه مذهولة، فإذا بسهم يعلوه ريش قد استقر في ظهره.

* * *

صرخت رنزنب قائلة: يحموز، يحموز؟!

أذهلت الصدمة رنزنب فجعلت تردّد اسم أخيها مرة بعد أخرى وهي لا تصدق ما رأته بعينيها، وكانت خارج الغرفة الصخرية وقد أحاطها حوري بذراعه وهي لا تكاد تذكر كيف قادها إلى هناك، بل كانت تكرر اسم أخيها بدهشة وخوف.

وأخيراً قال لها حوري: أجل، يحموز. لقد كان يحموز طَوال الوقت.

- كيف؟! ولماذا؟! كيف يمكن أن يكون هو؟! ألم يشرف على الموت مع سوبك تأثّراً بالسم الذي كان في النبيذ؟

- لم يكن يحموز في خطر الموت، فقد شرب من النبيذ المسموم ما يجعله مريضاً فقط، لكنه غالى في إظهار أعراض المرض وآلامه، وكان يعرف أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإبعاد الشبهة عن نفسه.

- ولكنه ما كان يستطيع قتل إيبي، فقد كان وقتئذ ضعيفاً خائر القوى.

- كان هذا ادّعاء منه. ألا تذكرين أن الطبيب ذكر أنه متى زال أثر السم سيستعيد قوته سريعاً؟ لقد حدث هذا، لكن يحموز

تظاهر بعكسه.

فعادت هي تسأل: لماذا يا حوري؟ أنا لا أستطيع فهم ما حدث.

فتنهد حوري قائلاً: أتذكرين يوم حدثتك عن الفساد الذي ينبعث من الداخل؟

- نعم، أذكر ذلك، وقد كنتُ في الواقع أفكر فيه هذا المساء.

- لقد قلتِ لي يوماً إن قدوم نوفريت هو الذي أحدث الشر، لكن ذلك لم يكن صحيحاً. لقد كان الشر هنا من قبل، لكنه كان محجوباً في قلوب أفراد الأسرة، وكل ما أحدثه مجيء نوفريت أنه كشفه للضوء، وعلى هذا استحالت رقّة كيت ووداعتها إلى أَثَرة طاغية لنفسها وأطفالها، ولم يعد سوبك ذلك الشاب المرح اللطيف بل صار ضعيفاً متباهياً، وأما إيبي فلم يعُد الطفل الجذاب المدلل بل صار أنانياً يدبر المكائد، ثم انقلبت ساتيبي العاتية ذليلة ضعيفة، وانحدر أمحوتب نفسه إلى طاغية فخور.

- أنا أعرف كل هذا، كما أعرف بُعد حنة من الإخلاص المزعوم، فقد كشفَت لي الحقيقة تدريجياً. ولكن لماذا تحدث مثل هذه الأمور؟! لماذا يصدر الفساد من داخل النفوس كما قلتَ يا حوري؟

فهزّ حوري كتفيه وقال: من يدري؟ ربما كان النموّ ضرورياً للخير وللشر في نفس الإنسان، ولعل الخير الداخلي إذا لم يستطِع صاحبه تنميته انقلب إلى شر، أو ربما كانت الحياة التي يحبونها ضيقة الأفق فلا يرون فيها إلا مرمى أبصارهم، ولعل هذا كان

مرضاً أصاب أحدهم فقط، لكنه كان مرضاً معدياً كالآفة التي تصيب النبات.

ساد الصمت بينهما قليلاً ثم قالت رنزنب: لكن يحموز كان يبدو دائماً كما هو لم يتغير!

فقال حوري: أجل يا رنزنب، وقد كان هذا من دواعي ارتيابي فيه. فالآخرون كانوا يجدون لهم منفذاً من حدّة طباعهم، أما يحموز فكان هيّاباً يسهل التحكم فيه وليست لديه الشجاعة الكافية لأن يثور، فقد كان يحب أباه ويكدّ لكي يرضيه، ولكن أمحوتب كان يحسبه غبيّاً بطيئاً ويحتقره لهذا، وكانت ساتيبي أيضاً تعامله بالازدراء الذي تمدّها به طبيعتها المشاكسة، ولهذا ثقل على نفسه تدريجياً عبء الغضب الذي يخفيه في قرارة نفسه، وكلما زاد وداعة أمام الناس اشتدّ به الكدر الخفي، وأخيراً عندما أوشك أن يجني ثمار جدّه واجتهاده بأن يشركه أبوه معه في أملاكه جاءت نوفريت! وقد كان جمالها هو الذي أشعل الشرارة الأخيرة، فقد هاجمت رجولة الإخوة الثلاثة، ولمست نقطة الضعف عند سوبك حينما صارت تزدريه وتعده أحمق، وصغّرَت من شأن إيبي إذ عاملته كطفل، وأظهرت ليحموز أنه في نظرها أقل من رجل.

ظهر الذعر على ملامح رنزنب ممتزجاً بالدهشة في حين أكمل حوري: ولم تسلّط ساتيبي لسانها الحاد على زوجها قدر ما سلطته بعد مجيء نوفريت، وقد كان تعييرها إياه بأنها أكثر منه رجولة هو الذي قضى على البقية الباقية له من ضبط النفس، فلما صادف نوفريت في ذلك الدرب قذف بها من أعلى.

فقالت رنزنب: لا يا حوري، كانت ساتيبي هي التي قذفت بها.

- لا يا رنزنب، لقد أخطأتم جميعاً في ذلك؛ فكل ما حدث أن ساتيبي رأت ما حدث من أسفل، أتفهمين؟

- ولكن يحموز كان معك في المزرعة وقتئذ.

- لقد كان ذلك في الساعة الأخيرة فقط. ألا تذكرين يا رنزنب أن جثمان نوفريت كان بارداً حين وُجد؟ لقد تحسستِ خدها بنفسك فظننت أنها سقطت قبل بضع لحظات، لكن الواقع أنها كانت قد ماتت منذ ساعتين، ولولا ذلك لما وجدت خدها بارداً في ذلك الجو الحارّ. لقد رأت ساتيبي ما حدث، لذا وقفَت خائفة حائرة لا تدري ماذا تفعل حتى جئت أنت فحاولَت بكل جهدها إبعادك.

- لكن... لكن كيف عرفتَ كل ذلك يا حوري؟!

- لقد استنتجتُه استنتاجاً، وكان سلوك ساتيبي هو الذي لفت نظري؛ فلا شكّ أنها كانت في ذعر شديد من شخص أو شيء، وقد أدركتُ أن الشخص الذي ترهبه هو يحموز لأنها تركت لومه وتعنيفه وصارت توّاقة لأن ترضيه وتطيعه، ولا شكّ أنها صُدمت صدمة عنيفة حين رأته يقتل نوفريت وهي التي كانت تحسبه أضعف رجال الأسرة وكانت تحتقره من أجل ذلك. ثم انقلب تصرف ساتيبي لذلك رأساً على عقب، فقد كانت -كمعظم النساء المشاكسات- جبانة إلى أقصى حدود الجبن، فلمّا تكشّفَت لها قسوة يحموز وشدته أخذها الفزع فراحت تتكلم وهي نائمة، فأدرك يحموز أنها خطرة عليه.

ثم نظر في عينيها مباشرة وقال: والآن يا رنزنب أنت تعلمين الحقيقة لما رأيتِه اليوم بعينيك. ساتيبي لم ترَ خلفها شبح نوفريت

حين سقطت سقطتها المميتة لكنها رأت ما رأيتِه أنت اليوم، رأت في وجه زوجها وهو يتبعها عزمه على القذف بها من أعلى كما فعل بنوفريت، ففرّت منه خائفة فسقطت، وعندما لفظَت اسم نوفريت وهي تموت كانت تحاول أن تخبرك أن نوفريت ماتت بيد يحموز.

وصمت حوري قليلاً قبل أن يستطرد قائلاً: وقد أدركَت إيزا الحقيقة من كلمة قالتها حنة عفواً، فقد شكّت في أنني لم أكن أنظر إليها بل كنتُ أنظر وراءها إلى شيء لا وجود له، ثم تحدثت عن ساتيبي. وفجأة رأت إيزا أن الأمور أبسط بكثير مما ظنّت أولاً؛ فساتيبي لم تنظر إلى شيء وراء يحموز بل كان يحموز نفسه هو الذي رأته، فأرادت أن تجرّب مدى هذه الفكرة من الصدق، فعرضت الموضوع بطريقة مشتّتة لا تعني شيئاً إلا ليحموز نفسه إذا كان هو الفاعل، وقد أدهشته كلماتها فظهر أثرها عليه لحظة واحدة، لكنها كانت كافية لأن تدرك إيزا أن ما ظنّته هو الحقيقة.

كانت علامات الذهول ترتسم على وجه رنزنب كلما اتضحت الحقيقة أمامها، وأكمل لها حوري قائلاً: وهنا أيقن يحموز أنها تشك فيه وأن الحقيقة توشك أن تتضح تماماً برغم قصة ذلك الغلام الراعي الذي كان خاضعاً له يفعل أي شيء يأمره به، حتى لو أمره أن يجرع دواء في تلك الليلة كي لا يستيقظ من نومه أبداً.

وهنا قالت رنزنب: آه يا حوري، من العسير أن أتصور ذلك! أنا أصدّق أن يحموز يقتل نوفريت، لكن الجرائم الأخرى...

- من العسير أن أشرح لكِ هذا، ولكن ما دام قلب الإنسان قد تفتّح للشر فهو يزدهر فيه مثل الخشخاش بين القمح.

فقالت رنزنب: آه يا حوري! لقد تولاّني الذعر حين نظرتُ خلفي فرأيت سحنته.

- أعرف ذلك، وقد أيقنتُ أنه إذا لاحت له فرصة لأن يقذف بك من الدرب فهو لن يتردد في اقتناصها.

- إذن أنت لم تبعث إليّ بالرسالة التي أبلغَتني بها حنة!

- أنا لم أرسل إليك بأية رسالة، وأعتقد أن حنة تعرف الحقيقة وأن يحموز قد استغلها كي تستدرجك إلى هنا، ولعلها ظنت أن وقوفها على السر يمنحها قوة تواجه بها يحموز، ولكنني أعتقد أنه ما كان ليدعها على قيد الحياة طويلاً، فربما كانت الآن...

فسَرَت رعدة في جسد رنزنب ثم قالت: ألا يوجد أحد باطنه مثل ظاهره؟

- بلى، هناك بعض الناس؛ فنحن، أنا وكامني، كلانا كما تعرفيننا ظاهراً وباطناً.

قال الكلمات الأخيرة لغرض في نفسه، فأدركت رنزنب فجأة أنها في مفترق الطرق وأن عليها أن تختار بين الاثنين، ثم قال حوري: كلانا يحبك يا رنزنب، ويجب أن تعرفي ذلك.

فقالت ببطء: ومع ذلك تركتَ عُدّة زواجي تُعَدّ دون أن تقول أية كلمة؟

- كان ذلك من أجل وقايتك، وكانت إيزا ترى هذا الرأي نفسه، فقد كان عليّ أن أظل بعيداً بلا غرض حتى يمكنني أن أرقب يحموز عن كثب ولا أثير عداوته لي.

ثم خفّض من صوته وقال بتأثّر ملحوظ: يجب أن تعلمي يا رنزنب أن يحموز كان صديقي لسنوات عديدة، وقد كنت أحبه وحاولتُ أن أقنع أباك أن يمنحه المركز والسلطة اللذين يصبو إليهما، ولكني فشلت. وقد حدث ما حدث كله في الوقت الأخير، ومع أنني كنت موقناً من أن يحموز هو الذي قتل نوفريت إلاّ أنني حاولتُ أن ألتمس له الأعذار، ثم جاء مقتل ساتيبي وسوبك وبعدهما إيبي ثم إيزا أخيراً... وعندها أيقنت أن الشر الذي في نفس يحموز قد تغلّب على الخير فأزاحه، وهكذا لقي يحموز حتفه على يدي، وكان موته سريعاً بلا ألم.

فهزّت رأسها بأسف وحسرة ثم قالت: الموت، دائماً الموت.

فقال لها حوري: لا يا رنزنب، الحياة هي التي تواجهك الآن لا الموت، فمَن الذي تريدين أن تشاركيه فيها؟

فنظرَت أمامها إلى الوادي السحيق والنيل الفضي الذي يتخلله، وقد بدت لعينيها صورة كامني يبتسم وهو جالس أمامها في الزورق ذلك اليوم فراحت تحدث نفسها قائلة: كامني جميل قوي مرح وأنا أشعر بخفقان قلبي لذكره، أجل، يمكن أن يحلّ محلّ خاي في حياتي، وسنعيش سوياً ويهنأ كل منّا بصاحبه، وسيكون لنا أطفال أقوياء وجوههم جميلة وستكون أمامنا أيام مملوءة بالعمل وأيام أخرى نركب فيها الشراع فوق صفحة النيل. ماذا أريده خيراً من ذلك؟

ثم أدارت وجهها ببطء تجاه حوري الذي كأنما فهم ما تريده فقال لها: لقد أحببتُك حين كنتِ طفلة، وأحببتُ فيك وجهك

الرزين والثقة التي كانت تسوقك إليّ طالبة أن أُصلح لك لعبك المحطمة، ثم عدتِ إليّ بعد ثماني سنوات وصرت تجلسين معي هنا وتصارحينني بما يدور في خلدك. وعقلك يا رنزنب ليس مثل عقول بقية أفراد الأسرة، فهو لا يدور حول نفسه ليتوه في سراديب ضيقة. عقلك كعقلي، ينظر إلى ما وراء النيل ليبصر عالماً فيه كل شيء ممكن لمن أوتي الشجاعة وبُعد النظر.

فقالت له: أجل يا حوري، لقد شعرتُ بهذه الأشياء معك، ولكن ليس كل الوقت، فثمة لحظات لا أستطيع فيها أن أتابع مجرى أفكارك فأبقى وحدي.

ثم توقفَت عن الكلام عاجزة عن أن تعبر عن أفكارها بالأسلوب الملائم. لم تكن تدري كيف تكون الحياة مع حوري، فهو برغم رقته وحبه لها ستبقى عاجزة عن فهمه من بعض الوجوه، فهما سيستمتعان معاً لساعات مملوءة بالفكر والجمال، ولكن كيف تكون حياتهما اليومية العادية؟

وأخيراً مدت إليه يدَيها بدافع غريزي ثم قالت له: اسمع يا حوري، أنا أرجو منك أن تختار أنت لي، أخبرني ماذا أفعل.

فابتسم لها كأنما يبتسم لطفلة صغيرة تحدثه، وربما كان ذلك للمرة الأخيرة، ولم يتناول يدَيها وإنما قال بهدوء: لا أستطيع أن أنصحك بما تفعلينه في حياتك يا رنزنب لأنها حياتك أنت، وأنت وحدك التي تستطيعين أن تقرري ما ترينه بشأنها.

فأدركت في تلك اللحظة أنها لن تتلقى منه عوناً على الاختيار، ولم تجد منه ما يثير حواسّها بلمس يدها كما فعل كامني. وفجأة تجلّى أمامها الاختيار في أبسط أشكاله؛ لقد كان عليها أن

تختار بين الحياة السهلة والحياة العسيرة، وشعرت برغبة شديدة في أن تهبط الدرب توّاً إلى الحياة السعيدة المعتادة التي عرفتها مع خاي، فهناك الأمان وهناك المشاركة في المسرات والأحزان دون أن تخشى شيئاً سوى الكبَر والموت. أجل، الموت! لقد دارت بها أفكار الحياة دورة انتهت بها إلى الموت. خاي مات، وكامني أيضاً سيموت وتختفي ملامحه من ذاكرتها كما اختفت ملامح خاي.

عندئذ نظرت إلى حوري وهو واقف بهدوء إلى جانبها، وعجبت كيف أنها لم تلتفت من قبل إلى منظره! لم تكن بحاجة لأن تمعن النظر إلى شكله من قبل، فتكلمَت وفي صوتها رنين الحزن الذي كان له حين ذكرت له يوماً أنها ستسير في الدرب وحدها عند الأصيل فقالت له: لقد اخترتُ أن أشاركك الحياة على الخير والشر يا حوري، حتى الموت.

فأمسك بكفّيها وأرسل نظرة ملؤها الحب إلى عينيها، فشعرت فجأة بحلاوة وجهه فوق وجهها وشعرت بموجة الحياة تغمرها، ثم قالت لنفسها: لو قُدّر لحوري أن يموت فأنا لن أنساه؛ فحوري هو أغنية قلبي إلى الأبد، ومعنى ذلك أنه لا موت بعد اليوم.

* * *

(تمت)